THE LIBRARIES

COLUMBIA UNIVERSITY

GENERAL LIBRARY

SEP 25 1974

وزارة الثقافة والارشاد
مديرية الثقافة العامة

سلسلة الكتب الحديثة
٤

الحرية

ابراهيم الخال

دار الجمهورية للطباعة والنشر - بغداد
١٩٦٤

وزارة الثقافة والارشاد
مديرية الثقافة العامة

سلسلة الكتب الحديثة
٤

الحرية

بحث فكري موجز في تاريخها ومصيرها

بقلم
ابراهيم الخال

دار الجمهورية للطباعة والنشر - بغداد
١٩٦٤

اصداء بعيدة التاريخ

956
Dr27
4

الحرية ركن من أركان السعادة الانسانية ما في ذلك شك • وقد يرى البعض بالاضافة الى ذلك ، أن الحرية هي السعادة بعينها • ونقيض الحرية هي العبودية • فتجريدك الانسان من حريته يعني انك صيرته عبدا ، وهو ما يتنافى مع كرامته الانسانية •

والحرية اما أن تكون مطلقة ، أو أن تحدد بقانون • وان الخطوط الرئيسية لتعريف الحرية المطلقة هي : « أن تفعل ما تريد ، في الوقت أو المكان الذي تريد » • وجرياً مع هذا التعريف ، فان الانسان اذا استطاع أن يفعل ما يريد ، فانه بذلك سيؤمن كل احتياجاته المادية من طعام وشراب وملبس وتوفير الفائض منها الى أي حد أراد ، بالاضافة الى ما قد يرى فيه

من البهجة والانشراح ؛ ثم ان له ان يعتدي على من يريد أو يقتل من يريد ، كل ذلك في أي وقت شاء ، ليلا أو نهاراً ؛ وفي أي مكان شاء ، في البر أو في البحر ، في هذه الدار أو تلك ، في البيت أو في الشارع ، فيهذا البلد أوذاك .

ومن الواضح ، أن مجتمعاً يقوم على هذا الاساس من الحرية المطلقة لابد أن يصير الى حال مخيفة من الفوضى . لذلك كان من الضروري أن تحدد حريات الافراد داخل الهيئة الاجتماعية بقوانين . كذلك فاننا لم نسمع بانسان معين مارس مثل هذه الحرية المطلقة في التاريخ دون أن ينزل ضرراً بغيره من الناس .

وقبل قيام المدنيات ، كانت قد مرت عهود سحيقة وطويلة من الهمجية والبربرية ، عاشها الناس دونما نظم أو قوانين تنظم شؤونهم المعاشية ،فكان للانسان أن يتصرف وفق ما تقتضيه ظروف حياته بحرية مطلقة ؛ ومع ذلك ، فان تلك الحرية التي كان عليها الانسان الاول ، كانت محددة في الواقع بناب النمر ومخالب الاسد . اذ كثيراً ما كان يذهب ضحية حماقته وانطلاقه مع هواه عندما كان يدخل الأجم ليسرق بعض ما يعود لعالم الآجام .

ولسنا الآن في سبيل فلسفة قيام المجتمعات فلقد فلسف قيامها من قبل كثير . انما حسبنا أن نرى الانسان بعد عصور الهمجية الطويلة تلك ،

في حال مدنية بسيطة منتشرة هنا وهناك قبل قيام روما وأثينا في أوربا ، وقبل قيام ممفيس والسوس وأوريدو في الشرق •

وكل الذي سمعناه من التاريخ القديم عن حال الحياة المدنية في اليونان قبل ظهور أثينا مثلا ، هو هذا الحديث الشيق الذي رواه لنا « پلوتارك » وغيره من المؤرخين القدامى النابهين • فلقد سمعنا منهم أن اليونان كانت حتى حوالى ١٣٠٠ ق•م مؤلفة من كثير من القرى الصغيرة المستقلة عن بعضها والمنتشرة في رحاب تلك البلاد • وفي تلك القرى البسيطة كان الناس يمارسون حرياتهم الكاملة في ظل نوع من الديموقراطية القائمة على صعيد بدوي • ذلك ان اليونانيين كانوا قريبي عهد بحالة البداوة التي تركوها مفضلين عليها حالة الاستقرار وممارسة الزراعة وانشاء المراعي حول مجموعات سكنية تطورت الى قرى صغيرة ثم كبيرة مع مرور الايام •

ولم يعرف تاريخ الانسان من بشر كان اكثر حرية من البدوي الواقف على أبواب المدنيات • لذلك كان هؤلاء القرويون اليونان اكثر الناس تمسكاً بحرياتهم عندما كانوا يناقشون شؤون حياتهم العامة داخل مجتمع القرية الصغير ، ثم شؤون السلم والحرب وعلاقاتهم بالقرى الصغيرة الأخرى في المجتمع اليوناني الواسع الأرجاء •

كان القروي اليوناني في ظل تلك الديموقراطيات الأولى حراً في حياته ، يعيش كيف يشاء : في القرية أو في المزرعة ، أو في المرعى ، فكان

يحصل على رزقه بما يتفق مع هوايته وميوله في مجال الصناعات البسيطة أو الزراعة أو الرعي ، في الوقت الذي كان فيه كل من يقدر على حمل السلاح من رجال القرية جندياً يدافع عن قريته أو يهاجم قرى الآخرين حسب مقتضيات الظروف والأحوال • وكان لكل قرية من تلك القرى محاكمها الخاصة ، ومحل اجتماع عام لأبناء القرية جميعاً يتداولون فيه شؤونهم حيث تتخذ القرارات المختلفة فيه بأغلبية الآراء ، بعدها يكون الجميع ملزمين بتنفيذ تلك المقررات •

وعندما ظهر « تيزيوس » (١٢٤٩-١١٩٩ ق•م) وقويت شوكته ، أراد القيام بمشروع مدهش خطير ، وهو جمع أهالي أتيكا كلهم في محل واحد ليجعل منهم شعباً واحداً في مدينة واحدة ، وكانوا قبل ذلك ، كما سبق أن أشرنا ، في قرى مترامية يصعب جمعهم للمداولة في الشؤون العامة، عدا أنهم كانوا متنافرين يكثر وقوع الحرب بينهم • وكان أن طاف تيزيوس بنفسه على كل القرى وحادث كل عائلة ، يقنعها بقبول مشروعه ، فلم يتردد الجميع في قبوله • ولكي يستميلهم اكثر ، فانه وعدهم بانشاء حكومة « حرة » بلا ملك تكون فيها الكلمة للشعب ، ولا يبقي هو لنفسه سوى قيادة الجيش وصيانة القوانين ، وان لكل مواطن ان يتمتع بما يتمتع به تيزيوس نفسه من حرية وحقوق • وبعد أن حصل على موافقة الجميع ورضاهم ، بادر الى هدم أماكن الاجتماع والمجالس في كل قرية وألغى

محاكمها وابتنى للجميع محل اجتماع واحد في مدينة جديدة سماها «أثينا» فأصبح هؤلاء القرويون الجدد « أثينيين » ، وقد برّ لهم بوعده فتنازل عن الملكية • وفي ذلك قال أرسطو « ان تيزيوس كان أول من آثر حكومة الشعب على غيرها وتنازل عن الملكية فكان بذلك مؤسس الجمهورية الأولى في اليونان » •

وهو لأجل تثبيت أركان الحكم الجمهوري والكيان الديموقراطي والمحافظة على الحريات العامة رأى أن اقامة « شرعة المساواة » خير ضمان لما يهدف اليه • بعد ذلك ، وعلى اساس من هذه المساواة ، وكذلك لأجل توسيع مدينة أثينا وجعلها ملتقى جميع من كانوا يسمون بالشعوب اليونانية أطلق نداءه المعروف : « أيتها الشعوب ، تعالي جميعاً الى أثينا » فكان بذلك أول من صاغ شكلا للديموقراطية والاشتراكية على صعيد من الحرية المتكافئة بين الأفراد ، في التاريخ •

فاذا تحولناه عن باني أثينا الى باني روما ومؤسس أمجادها ، ربيب الذئبة رومولوس (٧٩٩–٧١٥ ق•م) ، فانا نراه يفهم الحرية في صباه على انها ليست البطالة والكسل ، انما هي العمل في رياضة البدن والركض والصيد والقنص والقضاء على قطاع الطرق واللصوص وحماية المظلومين ، وهي أخلاق الفتوة التي أكسبته في بلاده شهرة واسعة •

ولم تكن روما يوم ميلادها في الحادي والعشرين من أبريل عام

٧٥٢ ق٠م بلداً للأحرار بحال • انها كانت مجرد ملجأ للعبيد والمنفيين الذين كان يتكون منهم جيش رومولوس الذي غادر « ألبا » مغاضباً ليقيم له مسكناً ومستقراً على الأرض التي رضع فيها ، كما تقول اسطورة ميلاده ، من ثدي الذئبة اللبن • وعندما أتم رومولوس بناء ذلك الملجأ ، كانت سياسته أن يقبل للسكنى فيه أياً كان ، وأن لا يسلم فيه العبد لسيده السابق ، ولا المدين لدائنه ، ولا القاتل لحاكمه ، محتجاً بأن ذلك يجري بموجب وحي من « أبولون » الذي كفل الحرية لجميع اولئك العبيد والهاربين • وعلى هذا الأساس ، وبموجب تلك السياسة كانت روما قد بدأت تتسع وتكبر يوماً بعد يوم •

على أن عظمة رومولوس لم تكن تتمثل في اقامته روما لتحرير ذلك الجيش من العبيد وحسب ، انما في المثل الرائع الذي ضربه في التاريخ القديم لحماية الحرية في المجتمع الروماني الذي أنشأه فور قيام روما ، وذلك بالسياسة الحكيمة التي اتبعها فيه •

انه بعد أن انتخب أفراد جيشه من بين الجميع ، اختار من بين ذوي المراكز مائة وألف منهم مجلساً ودعاهم باسم « الآباء » و « الحماة » ليفهمهم بأن قوتهم المستمدة من مراكزهم يجب أن لا توجه الى استغلال ابناء الشعب والطغيان عليهم والتجاوز على حقوقهم وحرياتهم ، بل انما لرعايتهم وحماية مصالحهم من الأخطار ؛ ذلك ان رومولوس كان يؤمن بوجوب حنو القوي

على الضعيف حنواً أبوياً في مجتمعه الروماني الجديد • كذلك كان يهدف من وراء تلك التسمية الى تنبيه ابناء عامة الشعب الى أن ينظروا الى هؤلاء الشيوخ المنتخبين نظرة الأحرار المؤمنين بحقهم في الحرية فلا يخشوا هؤلاء الأقوياء أو يروا فيهم ما يمتازون به عليهم ، أو أن يحزنوا لعدم نيلهم شرف الانتخاب مثلهم ، بل يجب أن يحترموهم كما يحترمون آباءهم الحقيقيين ما داموا جديرين بهذا الاحترام •

على هذا الاساس من المحبة المتبادلة واحترام الحريات قسم روملوس ابناء روما الى فريق « المحامين » أو الحماة ، والى فريق « الأتباع » وهم عامة ابناء الشعب ، وجعل العلاقات بينهما على أحسن وأفضل ما يكون اذ أقامها على الواجبات المتبادلة فكان الحماة أو « المحامون » يفسرون الشرائع لأتباعهم ويدافعون عنهم أمام المحاكم ، يمدونهم بنصائحهم وارشاداتهم ويتولون بأنفسهم جميع ما يستطيعون من أعمالهم ، وكان « الاتباع» بدورهم شديدي التعلق بهؤلاء المحامين ، يجلونهم ويرعون حرمتهم ويساعدونهم في مهور بنات الفقراء وتسديد ديون المعوزين من أبناء الشعب ؛ كذلك لم يكن لحاكم ولا لمحكمة أن تكره تابعاً على اداء شهادة ضد محاميه ، ولا محامياً ضد تابعه • ولقد بقيت الحال على هذا المنوال مدة الى أن وجد المحامون فيما بعد أن من المعيب المخجل أن يتناولوا من الفقراء مالاً في القضايا التي كانت تتطلب منهم دفع المال فتنازلوا لهم عن ذلك الحق ، وهو ما أدى الى ازدياد

احترام ابناء الشعب لهم فكانت تابعيتهم لمحاميهم صادرة عن حب واجلال نابعين من صادق العاطفة لا أثر في ذلك لضغط أو اكـــراه • وهكذا كان هؤلاء المحامون موضع رعاية الشعب واحترامه ما داموا في خدمة الشعب ورعاية حقوقه وحرياته واسلوب حياته الديموقراطية •

أما القضايا العامة وشؤون السلم والحرب فكانت تعرض على الشعب للموافقة عليها وذلك في اجتماع أو فيجلسة مشتركةكبيرة يعقدها رومولوس والشيوخ وابناء الشعب عامة في الســاحة العمـــومية الكبرى حيث كانت الأمور المطروحة تناقش من قبل الجميع بحرية كاملة ، كما كان الشيوخ فيها يتبارون في ابداء منتهى ما يتمكنون من خدمة لأتباعهم كسباً لثقة أبناء الشعب المجتمعين هناك •

وكان رومولوس لا يتعرض بأذى الى الأهلين من سكان المدن التي نشتبك معه في قتال على الرغم من أن الرومانيين كانوا يعتبرون سكان تلك المدن المجاورة لروما شعوباً أجنبية • صحيح أن رومولوس كان يلـــزم أولئك المغلوبين بهدم بيوتهم ومنازلهم ، الا انه كان في ذات الوقت يسير بهم جميعاً الى روما ، لا ليعيشوا فيها عيشة العبيد الأرقاء كما كان يجري عـادة للمغلوبين في التاريخ القديم ، انما ليصبحوا مواطنين رومانيين أحراراً لهـم نفس الحقوق والحريات التي يتمتع بها أي مواطن روماني آخر ، وعليهم نفس ما كان عليه من واجبات • بعدها كانوا يتركون ليبتنوا لهم مساكن

جديدة ويمارسوا الأعمال التي تناسبهم في السوق أو في الحقل أو في السياسة بحرية منقطعة النظير . أو لم تقم روما نفسها بالأصل كدار لتحرير العبيد ؟ ولقد كانت سياسة رومولوس هذه تجاه سكان المدن الايطالية المغلوبة عاملا أساسيا في توسع روما وتعاظم أمجادها وهيبتها بسرعة . كذلك فانها لما شاع عنها من رعايتها للحرية والحياة الديموقراطية ، كانت قد أصبحت قبلة أنظار المظلومين والمستعبدين والأرقاء والأحرار المنفيين وكل من يحلم بالحرية والديموقراطية في أوربا القديمة فاجتذبت اليها الكثير من هؤلاء .

وبالنسبة للشعوب الاخرى أيضا ، فان رومولوس عندما آل اليه حكم « البا » بعد وفاة حاكمها الذي كان جده لأمه « نوميتور » ، كان قد عامل الشعب الألبي باحترام بالغ فتنازل لهم عن حكومة بلادهم مكتفياً بارسال حاكم روماني من قبله ، واجبه مراقبة اقامة العدل وصيانة الحرية، وتطبيق الديموقراطية التي كانت عليها روما لا غير .

على ان الذي يؤسف له ، هو أن رومولوس ، بعد أن ضرب للدنيا أروع الامثلة في الحرية والديموقراطية ، وبعد أن شاد لروما بنيانها وامجادها الباذخة ، نراه في أواخر أيامه وقد بدأ ينزع نحو الأرستقراطية والاستبداد ، فكان أن استخف بالجمهور وطغى على العامة وانغمس في البذخ والترف . انه أخذ يعقد الجلسات العامة جالساً على مقعد مترف ،

يحيط به الحرس المسلح المنتخب من الشبان ذوي البأس على غير ما هو معتاد • وكان اذا مشى ، فانما تسبقه بين يديه طائفة من هـــؤلاء الحرس الأشداء ، يحملون عصياً يبعدون بها أبناء الشعب عن طريقه ، وأغلالا يغلون بها من يؤمرون بالقبض عليه ، وحبالا يشدون بها وثاق المغضوب عليهم من قبل رومولوس • كذلك لم يعد لأعضاء مجلس الشيوخ من المحـــامين من رأي في ادارة دفة الحكم فأصبحت ألقابهم تلك مجرد شارات شرف اذ كانوا يدعون الى المجلس صورياً بحكم العادة ، لا ليناقشوا أو يفاوضوا ، انما ليستمعوا أوامر رومولوس وتعليماته وهم صـامتون • ومثلمـــا حرم الشيوخ حرية ابداء الرأي والمناقشة ، كذلك حرم الشعب هذه الحرية ، فلم يعد لهم من أثر في كل ما كان يتخذه رومولوس من قرارات • وعندما وزع رومولوس الاراضي الفائضة على الجنود دون بقية ابناء الشعب، وذلك بقرار اتخذه بمحض ارادته دون موافقة الشيوخ والعوام ، كانت مراجل الثورة قد بدأت تعمل عملها في صدور شيوخ الرومان الذين بادروا الى وضع نهاية حاسمة لحياة باني روما العظيم ، ثم طاغيتها الذي أصبح يفعل ، دون ارادة الشعب ما يريد •

ولم تكن « سپارطة » أقل اعتزازا بالحرية والديموقراطية من شقيقتيها روما وأثينا • ذلك انه كان أول ما وضعه لها مشرعها العظيم « ليكركوس» (حوالي ٨٨٤ ق•م) هو نظام مجلس « السينا » أي مجلس الشيوخ الذي

قال عنه أفلاطون انه كان قوة تهيء للحكومة سبل السلامة بالنصائح الحكيمة اثناء الازمات والايام العصيبة • وكانت الحكومة آنذاك موضع نزاع مخيف بين الملوك الذين كانوا يميلون بها نحو الاستبدادية من جهة ، وبين الشعب الذي كان يجتذبها نحو الحرية والديموقراطية من جهة أخرى • وكان مجلس « السينا » هذا الذي أسسه ليكركوس قد أصبح ناظماً أو قوة ثالثة من شأنها المحافظة على التوازن بين الطرفين فكان يحول دون استبداد الحكام وطغيانهم في ذات الوقت الذي يحول فيه دون تدهور الحرية والديموقراطية الى دركات الفوضى والغوغائية •

كان مجلس « السينا » يقترح القوانين ، وكان للشعب حق رفضها ان كانت في غير صالحة • وكانت تلك الجلسات المشتركة تعقد في العراء بعيدا عن فخفخة المباني وزخرفها • ولقد قال ارسطو في ذلك ان ليكركوس كان لا يريد أن تنصرف أذهان الشيوخ عن خدمة الشعب بعض الوقت وهم يتأملون ريازة وزخرف المباني • على ان هذا النهج الذي شاد عليه ليكركوس جمهوريته ، كان قد تغير بعد عهده فتحول مجلس السينا الى حكومة اوليغاركية مطلقة السلطة كادت تؤدي بالديموقراطية والحريات العامة نهائيا لولا أن قيدت ، كما يقول أفلاطون ، بسلطة نواب الشعب بعد ثمانية وثلاثين عاما من وفاة ليكركوس •

وكان ليكركوس قد لمس بأن التفاوت في الغنى والثروات من شأنه

تحديد حرية عامة الشعب الفقراء وحصرها في أضيق الحدود ، ثم توسيع حرية الاثرياء الى أقصى مداها ، وهو ما يؤدي الى الظلم الاجتماعي والى تجاوز ذوي الغنى على حريات وحقوق الاخرين فعمد الى تطبيق الاشتراكية كحل جذري لهذه المشكلة .

كان عدم المساواة الاقتصادية في سپارطة قد بلغ حداً مخيفاً ، وهو ما كان يقلق ليكركوس أشد القلق . لذلك فانه اتجه بحزم الى تطبيق اشتراكيته عن طريق نوع من الاصلاح الزراعى ، وذلك بأن أقنع جميع أهالي سپارطة بالنزول عما قد يملكونه من الاراضي الزراعية واعادة تقسيمها على ابناء الشعب من جديد على أساس « الفضيلة » وحدها ، اذ انه رأى أن لا فرق بين الناس ، ولا امتياز لاحدهم على الاخر الا بمدى احتقاره لما يخجل ، والا بمدى حبه للخير . وكان أن نفذت تلك الخطوة فعلا فقسم أراضي « لاكونيا » الى ثلاثين الف جزء لسكان الريف ، وتسعة آلاف لاهالي المدينة ، مراعيا بذلك عدد النفوس ومقدار الناتج الزراعي ، بحيث يكفل هذا الناتج للجميع دون استثناء ، حياة مطمئنة رخية بعيدة عن الحاجة والحرمان .

وكان أن مرّ ليكركوس بعد تنفيذ هذه الخطوة بسنوات بـ «لاكونيا» في طريق عودته من رحلة انتهى منها أيام الحصاد ، فشاهد حُزم الغلال مرصوفة صفوفاً منتظمة ومتساوية فالتفت الى أحد رفقاء سفره ليقول قولته

التي وعتها دنيا السياسة الحديثة بعد أن ذهبت مثلا في التاريخ : « كأن حصاد لاكونيا ميراث يتقاسمه اخوة » .

وهو لكي يقضي على جميع أسباب التفاوت وعدم المساواة بين المواطنين فانه تطرف فهاجم الترف بشدة ، ولجأ الى القضاء عليه بطريقة نادرة المثال في التاريخ ، وهي انه ألغى النقود الذهبية والفضية مستعيضاً عنها بنقود حديدية ثقيلة الوزن ، زهيدة القيمة بحيث يلزم للاحتفاظ بعشرة « مين » منها ـ وهو ما يساوي دينارا عراقيا واحدا ـ غرفة اعتيادية بكاملها، وبحيث لا يمكن نقل هذا الدينار أيضا من محل الى آخر ، الا بواسطة عربة سپارطية يسحبها ثوران . ولقد أدى صعوبة تداول تلك العملة الى اختفاء الكثير من المباديء والأسس التي كانت تقوم عليها الحياة الاقتصادية في سپارطة فاختفى ميل الناس الى اكتناز الاموال ، واختفت كذلك السرقات لعدم رغبة اللصوص في سرقة نقود عديمة النفع يصعب عليهم نقلها واخفاؤها .

ولقد اختفت مع العملة القديمة الملغاة كذلك ، جميع وسائل الترف والمصنوعات الكمالية الاخرى في سپارطة لعدم تمكن صناعها وتجارها من الحصول على ما يقابلها نقدا في الداخل ، ولعدم استطاعتهم استيرادها من الخارج بسبب عدم قبول تجار المدن اليونانية الاخرى النقود السپارطية الجديدة كثمن لها .

كذلك كانت تلك النقود موضع سخرية بقية الشعوب ، فلم يستطع أهالي سپارطة والحالة تلك ، من شراء أية بضاعة أجنبية مهما كانت رخيصة الثمن ، فلم تعد لترسو آنذاك أية سفينة تجارية في الموانيء السپارطية ، كما لم تطأ أرض لاكونيا بسببها قدم لعراف أو سوفسطائي أو سمسار عواهر أو تاجر مجوهرات • عند ذلك راح الترف يذبل تدريجيا حتى مات فاختفت بذلك كل ميزة لاصحاب الثروات على غيرهم من المواطنين ، بعدها أصبحت صناعات الادوات الضرورية للحياة اليومية الاعتيادية على درجة عالية من الجودة •

وكانت الخطوة الثالثة التي اتبعها ليكركوس في صيانة الحرية وتدعيم النظام الاشتراكي ، هي تربية الشعب على ابعاد فكرة « الاستعباد » من الاذهان وذلك بغرس فكرة « الأخاء » بدلا عنها • وللقيام بهذه الخطوة ووضعها موضع التنفيذ ، فقد أقام نظام « الطعام العام » ، وهو ما كان يسميه السپارطيون « فيليتا » أي « موائد الاخاء » • وكان قد ألزم بهذا النظام جميع مواطني سپارطه بتناول طعامهم سوية مجتمعين ليأكلوا من طعام واحد ويشربوا من شراب واحد ، فكان على كل مواطن أن يقدم للمطبخ العام شهريا مقدارا معينا من الدقيق والجبن واللحم والفاكهة والخمرة ، ثم ليجتمعوا في مواعيد الطعام سوية على موائد تضم كل منها خمسة عشر أو حوالي هذا العدد من المواطنين ، بعدها أصبح تناول الطعام في البيوت الخاصة

من المحرمات .

وكان الخضوع لهذا النظام اجباريا يلتزم به السپارطي ، ملكا كان أو صعلوكاً ؛ وقد حكم قادة الشعب يوما على الملك « أجيس » بغرامة عندما غضب ورفض اداء التقدمة الشهرية كالمعتاد بسبب عدم السماح له بتناول نصيبه من المائدة العمومية مع زوجته في بيته عشية عاد الى سپارطة بعد أن قاد حملة عسكرية موفقة على أثينا .

وكان الاطفال يؤخذون الى تلك الموائد ليتطبعوا ، كما يعتقد ليكركوس ، بطباع الاحرار الكبار وليستمعوا الى الاحاديث السياسية ويتعلموا المزاح بكياسة وكيف يسخرون دونما فحش ، ثم كيف يحتملون السخرية ، وهي تصرفات كان على السپارطي الذي يضيق بها ذرعا أن يشير بوقفها فورا فتتوقف وتنقطع في الحال .

وحيث ان هذا النظام كان من الوسائل التي اتخذها ليكركوس للقضاء على أبهة الاغنياء وترفهم ، فقد ثارت ثائرتهم يوما عليه واجتمع عدد كبير منهم حوله وهم يصيحون صيحات الويل والثبور ، ثم انهالوا عليه رجماً بالحجارة ففر هاربا من الساحة العامة ملتجئا الى أحد الهياكل ، ولم يكن التجاؤه هذا ليمنع « الكاندر » ، أحد الشبان الغاضبين من هؤلاء ، من ملاحقته واقتلاع احدى عينيه بعصاه .

وبخصوص حرية المرأة فان ليكركوس كان قد منحها كامل حريتها

وساواها بالرجل على أساس من الفضيلة ، فجرب بذلك طريقته بأن حاول تقوية عضلات البنات بالمران على الركض والقتال ورمي الرمح والسهم كي يحتملن آلام الوضع بشجاعة ويلدن أطفالا أقوياء يصبحون شجعان المستقبل كآبائهم وامهاتهم • كذلك فانه أبعد البنات عن حياة الكسل الناعمة في البيت والتي كان يعتقد بأنها من أسباب ضعفهن ، فعودهن على الظهور عرايا بملابس الرياضة كالشبان ، يتريضن ويرقصن ويغنين في الحفلات العامة أمام الجمهور • ثم انه دفع بهن الى حضور المسابقات التي كانت تجري بين الشباب ، يوبخن المخطيء منهم ويثنين على المصيب ، فكان لتوبيخهن وثنائهن تأثيره السحري الخلاق في نفس من أخطأ أو أصاب •

والى جانب هذه الحرية ، فقد كان للنساء في الفضيلة والحياء حمى من عواقب اختلاطهن بالرجال ، فلم يكن هناك من يفكر فيهن بسوء • كذلك كان اعتيادهن حياة الرياضة والبساطة قد وجههن الى الارتفاع بقلوبهن الى ما هو فوق الميول الجنسية المعتادة عندما وجدن انفسهن على قدم المساواة في المجد والفضيلة مع الرجل • وكان أن قالت احدى الاجنبيات يوماً لسپارطية معروفة : « انتن نساء سپارطه وحدكن تسيطرن على الرجال » ، فما كان من السپارطية الا أن أجابتها قائلة : « ذلك لاننا وحدنا نلد الرجال » •

ولقد أولى المشرع السپارطي الزواج اهتماما كبيرا للحيلولة دون دفع

المرأة السپارطية الى الزنى اضطرارا ففرض عقوبات معينة على العزاب ومنح امتيازات خاصة للمتزوجين لدرجة أصبحت معها العزوبة عاراً • كذلك فانه كان ينظر باشمئزاز الى الشيخ الذي يتزوج من شابة ، والمريض الذي يتزوج من صحيحة فاتنة فكان يسخر من هؤلاء اذا اشتعلت نار الغيرة في صدورهم بسبب ما قد يحدث من خيانات زوجية في ظل مثل هذه الزيجات، فاختفت من سپارطة واختفى معها الزنا بسبب التمسك بالفضيلة والاقبال على الزواج الصحيح • ولقد سأل أحد الاجانب سپارطياً تلك الايام قائلا : « ما هو عقاب الزاني عندكم ؟ » ، فاجابه السپارطي بـ « أن يلزم الزاني ويغرم بثور طويل العنق يستطيع أن يشرب من نهر أوروتاس عندما يقف على قمة الجبل » • قال الأجنبي : « وكيف يمكن الحصول على ثور له مثل هذه العنق الطويلة ؟ » فأجاب السپارطي : « وكيف يوجد في سپارطه زنا اذن ؟ »

وكانت البلدان الاجنبية تطلب من سپارطه الحرائر من المرضعات أملا في أن يشب أطفالها أحرارا مثل السپارطيين ، في حين حرم ليكركوس على اطفال سپارطه المرضعات من العبيد •

كانت سپارطه في مطلع حياتها في نزاع وحرب مستمرة مع المدن المجاورة لاسباب لا مجال لشرحها مما فرضته ظروف العالم القديم • لذلك كان المواطنون الذين يعيشون فيها على ذلك الصعيد من الحرية والاشتراكية

يحيون مؤمنين بأنهم جميعا ملك الوطن الذي ينتظر منهم التضحية ونكران الذات • ولقد بلغ بهم حب الوطن ، الذي ترعرعت على أرضه حرياتهم ودفنت فيه عبوديتهم ، درجة جعلت منهم موضع روايات المؤرخين واعجابهم• وكان قد روي عن بعضهم أنه عندما فشل في الانتخابات العامة ولم يعلن اسمه ضمن الثلاثمائة الفائزين ، رجع من محل الانتخاب فرحاً مسروراً « لانه يوجد هناك في سپارطة ثلاثمائة ممن هم خير وأفضل منه ! » • وعندما سأل قادة الفرس الوفد السپارطي اليهم ، ما اذا كانوا موفدين من قبل « رئيسهم » أو « جمهوريتهم » أجابهم بيستراتيداس ، أحد أعضاء الوفد ، قائلا : « اذا نجحنا في مهمتنا فنحن موفدون من قبل جمهوريتنا ، والا فمن قبل رئيسنا » • وعندما قتل لسپارطية ولد في الحرب ، سألت بعض الاجانب الذين شهدوا مصرعه عما اذا كان ولدها قد مات شجاعا كما يموت الاحرار في الحرب ، فأجابوها بأنهم لم يشهدوا من كان أشجع منه ، غير أنها اعتزازا منها بوطنها قالت : « لا تقولوا ذلك ايها الاصدقاء ، لقد كان ولدي شجاعاً حقا ، غير أن هناك الكثير في سپارطه ممن هم خير منه وأشجع » •

هذه التربية والاخلاق التي كانت ثمار شجرة الحرية التي غرسها ليكركوس على أرض سپارطه الاشتراكية ، هي التي حفظت للمدينة العظيمة مجدها وتفوقها مدة خمسمائة سنة على صعيد اليونان • ولقد قيل عنها بحق: « انها كانت تملي ارادتها برسالة صغيرة على البلاد اليونانية جميعا فتدين

لها طائعة ، فلقد راحت تقوض أركان الظلم والاستبداد الذي كان يقض مضاجع غيرها من المدن ، فكانت تحكم فتبطل الحروب والمنازعات ، وكثيرا ما كان يحدث ذلك دون أن تجرد سيفاً أو تدير ترساً ، لا يكلفها ذلك سوى ارسال سفير يخضع لارادته الجميع ، فما أعظم ما كان لسپارطة الحرة من هيبة وما اشتهر عنها من عدل ! » .

وبعد سپارطة لابد لنا الان من العودة ثانية الى أثينا لنستمع الى بعض أخبار رائد عظيم من رواد الحرية الاوائل ، وذاك هو « بركليس » الذي حكم بين ٤٦١-٤٣١ ق.م فانضم الى صفوف ابناء الشعب رغم ما امتازت به الاسرة التي ولد فيها من غنى ومركز ارستقراطي كبير . لقد أحاط بركليس بجميع الافكار الثورية التي كانت قائمة آنذاك فاتخذ من الشعب عدة وسلاحا للحيلولة دون وصول « سيمون » ، الذي كان معبود الطبقة الارستقراطية والاشراف ، الى السلطة ، فبلغ هدفه وأصبح هو حاكما لأثينا .

ولقد اكتسب بركليس من صديقه واستاذه الفيلسوف «اناكساكوراس» علمه وألمعيته وتدقيقه في الامور ، واعتمد في اقامة حكمه الديموقراطي على اصدقائه أمثال « أفيالت » الذي أضعف نفوذ « الأريوباج » ، وهو المجلس الأعلى للحكومة الذي كان مع الاشراف والاغنياء ضد ابناء الشعب . ولقد قال أفلاطون عن « أفيالت » ساعد بركليس الايمن وصديقه الناصح هذا ،

انه كان « قد ملأ الـكأس دهاقاً من الحرية الخالصة وقدمها للشعب » • كذلك قال أحد الشعراء عن بركليس في أيامه انه « تـــرك الشعب ثملاً بحريته فصار كالجواد الجموح الذي لا يعرف الانقياد » •

وكان بركليس شديد التعلق بوطنه فكان يدافع عن حريتـه بسـيفه ولسانه سواء بسواء • ولقد قال في احدى خطبه وهو يؤبن الذين سقطوا قتلى في حرب ساموس : « لقد صاروا خالدين كالآلهة ، واننا لا نرى الآلهة، انما القربان الذي نقدمه لهم والحسنات التي ننالها منهم تشعرنا بأنهـــم خالدون ، وتلك هي حال المواطنين الذين يموتون في سبيل حرية الوطن »•

وكان بركليس قد وزع الاراضي الزراعية المنتجة على أبناء الشعب ، وأعطاهم بالاضافة اليها الاموال من خزينة الدولة بسخاء ليقيموا بها الحفلات والولائم ومجالس الانس والادب والتسلية فأصبح معبود الشعب الذي كان يهدد به مجلس الاريوباج الواسع النفوذ والسلطان • بعد ذلك ،وشداً لأزر الشعب في نزوعه نحو الحرية ، استطاع أن ينفي ســيمون ، زعيـــم الارستقراطية اليونانية من أثينا بالاقتراع السري على الرغم مما كان له من مركز •

لقد أطلق بركليس لابناء الشعب العنان ، فلم يكن يعنيه غير مرضاتهم وسعادتهم وحريتهم ، فراح يملأ المدينة أعيادا وحفلات فخمة ليفهمهم بأنهم هم معدن البلد وليست الارستقراطية اليونانية المتعجرفـــة • ولـــم يكتف

بذلك ، بل راح يرسلهم جماعات ضخمة على ظهور مئات السفن في اجازات تستمر شهوراً طويلة لاجل الترفيه والتسلية بعد أن يدفع لهم أجـــورهم كاملة • ولـكي يحارب الفقر والبطالة التي تسحق حرية الانسان وكرامته، فانه لجأ الى تعمير المدن التي دمرتها الحروب فكان يرسل فقراء أثينـــا والعاطلين فيها ليمارسوا أعمال التعمير في « سيباريس » الايطالية وغيرها من المدن التي سحقتها الحرب •

ولكـي يعم الأهلين الرخاء وتزدهر أثينا ، فانه التفت الى ايجاد نهضة عمرانية جبارة يحارب بها الفقر والفاقة من جهة ، ولتصبح أثينا مركزا من مراكز الحضارة العالمية من جهة أخرى • لذلك فانه كان قد جند الألوف المؤلفة من العمال والمهندسين والفنانين الذين راحوا يبنون المباني الفخمـة الجميلة المزينة بالتماثيل دونما كلل ، فاتخذ خصومه من ذلك حجة عليه وأشاعوا بين الأهلين بأنه يمتهن حقوق أبناء الشعب بتبذيره أموال اليونان المختزنة لاغراض الحرب والدفاع عن الوطن ، ويصرفها في غير وجوهها لدرجة أن أثينا قد أصبحت بسبب تصرفاته هذه « أشبه بغانية مثقلة بالعقود الثمينة والجوهر » •

وعندما سرى التذمر حول سياسة الانفاق هذه ، تقدم بركليس بكل رزانة الى الشعب وطلب منه ممارسة حريته في الاستفتاء العام والاجابة عما « اذا كان قد أسرف في الانفاق » • وكان جواب الشعب في ذلك الاستفتاء

أن : « نعم • ان بركليس قد أسرف فوق الحد » • وعندما رأى هذه النتيجة المحزنة التي آل اليها الاستفتاء ، توجه الى الشعب قائلا : « اني معكم،وسوف أتحمل وحدي جميع النفقات التي صرفت شريطة أن ينقش اسمي فقط على كل أثر من هذه الآثار » • عند ذلك شعر الشعب بالمناورة التي لجأ اليها قائده العظيم فأحسوا بكرامتهم وكأنها تمس فرفضوا أن تفهم الاجيال اليونانية القادمة بأن بركليس وحده وليس الشعب الذى أنجبه هو صانع أمجاد أثينا وحضارتها ، فما كان منهم الا أن أجابوه ، بعد أن انفضوا عن خصومه : « خذ يا بركليس من الخزانة ما شئت ، وانفقه بلا حساب كما تريد • » عندها التفت الى خصومه وعلى رأسهم « توسيديد » ، أشهر أعيان أثينا وصهر سيمون مار الذكر ، فأزاحهم من الميدان •

ولقد سأل أرخيمادوس ، ملك سپارطة ، توسيديد يوما عن أيهما أشد بطشاً في « المصارعة » هو أم خصمه بركليس ؟ فقال : « كنت اذا صرعته صاح لم سقط بعد ، وعندما أشهد الجميع على سقوطه وواقع الحال ، كانوا ينتهون الى تصديقه واعتباره غالباً ! » • وهكذا كانت أثينا تصفق لأبنائها الأحرار في قديم التاريخ •

ولم يكن بركليس مهتما بقضايا الحرية في أثينا وحسب ، انما كان يطمح الى تحقيقها في جميع المدن اليونانية • لذلك فانه كان قد استصدر قرارا بأن ترسل جميع المدن اليونانية كبيرها وصغيرها ، الاورپية منها

والآسيوية ، نوابا يحضرون جمعية عمومية تعقد في أثينا لبحث قضايا مهمة كان من بينها تأمين الحرية البحرية وتأمين حرية كل انسان • كذلك فانه عندما احتلت الجيوش الأثينية « ساموس » رفض جميع العروض التي قدمها بعض الساموسيين للابقاء على الحكومة الاوليغاركية • فلقد بادر الى حل تلك الحكومة وأقام مكانها حكومة ديموقراطية حرة ثم عاد راجعاً الى أثينا•

وباستطاعة الواحد منا أن يرى مدى ايمان ذلك المشرع الأثيني بالحرية والديموقراطية من بعض ما جاء في خطابه التأبيني خلال الحرب البيلوبونيسية التي وقعت بين سپارطة وأثينا حيث قال :

« لدينا حكومة من طبيعتها أن لا تخاصم مؤسسات جيراننا •• واننا لا نقلد الآخرين ، انما نجعل من أنفسنا قدوة لهم ، وما سميت حكومتنا ديموقراطية الا لكونها تدير البلاد ، لا لمصلحة الأقلية الضئيلة ، بل لمصلحة الاكثرية الغالبة •• والقوانين ـ ولو انها نصت على أن الافراد متساوون في مجال نشاطهم الخاص ـ لم تمنع الشخص الذي يمتاز على غيره بصفات خاصة أن يكون مقدما على الآخرين في مجال الحياة العامة • وهذه الافضلية ليست من قبيل الامتياز الكيفي ، ولكنها ثمرة للمساعي والجهود الشخصية ••• ان الرجل الذي يستطيع خدمة بلاده ، لا يقف فقره وضآلة شأنه حجر عثرة في سبيل تقدمه •• ان مبدأنا الاول في نظامنا العام هو « الحرية» واننا ـ في حياتنا اليومية ـ لا نضمر السوء لجارنا ولا نسيء الظن به لأنه يرضي

هواه بالشكل الذي يراه أوفق لمزاجه . كذلك فاننا لا ننظر اليه نظرة استياء أو ازدراء .. اننا نطيع الحكام ونحترم القوانين ، وعلى الخصوص تلك القوانين التي سنت لحماية العاجز والضعيف ، وتلك القوانين غير المكتوبة التي أقرها العرف وساندها الرأي العام » .

وبعد أن سيطرت أثينا على البحار وتمت لها انتصاراتها الرائعة تحت قيادة بركليس ، استطاع ذلك المشرع أن يمسك بعنان الشعب ليمنعه من التوسع والفتح والاستعمار خوفا عليه من الانهيار والسقوط . وفعلا ، فقد استطاع أن يحول دون اندفاع اليونان لفتح مصر والممتلكات البحرية العائدة للفرس ، كما حال كذلك دون غزوهم لصقلية وقرطاجنة .

وكان بركليس ، لايمانه الصادق بحرية الفكر ، قد بسط حمايته ورعايته على صديقه واستاذه الفيلسوف « اناكساكوراس » الذي كان لايؤمن بالاسطورة والخرافة ، لذلك كان أعداء بركليس قد استغلوا موقف المشرع الأثيني من صديقه هذا فراحوا يدسون عليه لدى أبناء الشعب ويشيعون بأنه يؤوي في المدينة اناساً لا يؤمنون بآلهة الدولة ، وبذلك غادر أناكساكوراس المدينة خوفا على حياته ما كان منه الا أن صحبه بنفسه وودعه مفترقاً عنه خارج الأسوار .

وبعد حروب مع المدن اليونانية ، ثم بعد محن ومعاكسات كان يدبرها له السپارطيون من الخارج وأعداء الحرية من الداخل ، استطاع هؤلاء

توجيه غضب الشعب ضده اثر موجة مخيفة من الطاعون اجتاحت أثينا خلال الحرب • كان أعداؤه يفهمون السذج من المواطنين بأن بركليس هو سبب الطاعون لانه حشر المقاتلين الريفيين معهم في المدينة • وهكذا الانسان البسيط ، شأنه في كل زمان ومكان ، أن يصدق الكلام الفارغ عندما تسيطر عليه المخاوف أيام الأزمات المهلكة وفي الأوقات العصيبة فيصدق ويؤمن بكل شائعة تقال ، خاصة اذا كان في تلك الشائعات بعض ما ينفس عن آلامه عندما يحسن المغرضون استغلال ضعفه وهم يشيرون باصابعهم الى أشياء غير حقيقية يوهمون بأنها هي العلة والسبب •

واذ يأتي الطاعون على أغلب أهل بيت بركليس ويفجعه بهم ، يصاب هو بالطاعون أيضاً فيرقد على سرير مرضه ليموت ، على غير عادة ضربات الطاعون ، ببطء • وكان آخر ما سمعناه من فم رائد الحرية العظيم ، قوله الذي كان يردده وهو على فراش الموت : « اني لم ألبس أثينا يوماً ثوب الحداد • • » •

ولقد كان بركليس على حق في ما قال • ذلك أن أثينا كانت قد عاشت في أيامه عصرها الذهبي فكانت قبلة أنظار الدنيا القديمة ومركزاً من مراكز الحضارة والحرية التي ما زالت أنوارها لامعة في التاريخ •

محنة الفكر ومصرع الحريات

لم تشهد الفلسفة أيام مجدها ، كما لم يشهد الفكر أيضاً ، من صعيد يخيم عليه جو الحرية كذلك الصعيد الطيب الذي عاشته الفلسفة على أرض اليونان • ف « اكزينوفانيس » مثلا ، كان قد ضرب صميم المعتقدات الدينية اليونانية بكل حرية دون أن يعترض طريقه أحد • كان يتنقل من مدينة الى اخرى ، يناقش الناس معتقداتهم في الآلهة من ذكور واناث مناقشة ساخرة ، ويهزأ من تصورهم آلهتهم بأشكال البشر ، فكان يقول لهم في ذلك انه لو كان للثيران من قدرة على التصور لصورت لها آلهة لها قرون مثلها • كذلك فانه هاجم « هوميروس » هجوما صاعقا فوصفه بأنه شاعر فاجر • وهوميروس ، كما نعلم ، كان صاحب المنزلة الكبرى لدى اولئك اليونان ،

حيث كان الحجة الكبرى في عالم الأساطير الالهيـــة المسيطرة على عقول الناس آنذاك •

ولقد ضرب « هيرقليدس » بمعتقدات الناس عرض الحائط عنـــدما أعلن لأول مرة بأن ثبات المادة ما هو الا وهم باطل وان العالم في تغـــير مستمر • كذلك كان « ديموقريتس » قد فعل عندما جاء بفتحه الفلســفي الأكبر وفسر الكون على أساس النظرية الذرية التي أطلت علينا ثانيــة في القرن السابع عشر والتي تلعب دورها الجبار اليوم في دنيا العلم والسياسة وفي تقرير مصير هذا الكوكب •

ثم جاء السوفسطائيون فتحولوا عن مشاكل الكون المادية الى مشاكل الحياة الانسانية في السياسة والأخـلاق • ومهما تكن قيمة نظرياتهم التي استحدثوها فان روحهم العامة كانت روح البحث الطليق والمناقشة الحرة مما دعا المؤرخين الى تسمية النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميـلاد بعصر التنوير •

ولم يكن خـروج « أناكساكوراس » من أثينـــا ـ وقد كان يكفر بالشمس كالٰه يعبده الأثينيون ـ لأسباب تتعلق بحرية الفكر كمبدأ بحال ، انما كان ذلك بسبب ظرف سياسي استغله أعداء الحرية ضد صـــديقه بركليس • لذلك فانه عاش عيشة كريمة في « لمباكوس » التي لجأ اليها •

وكان سقراط نافراً من الديموقراطية المطلقة الحدود في ذات الوقت

الذي كان فيه من أكبر أعداء الاستبداد والارستقراطية ، فألب بذلك على نفسه الشعب والارستقراطية المستبدة على حد سواء • لقد كان أعظم استاذ في طائفة المعلمين ، وكان على شدة فقره لايقبل تقاضي الاجور ممن يعلمهم شأن بقية المعلمين • وكانت تعاليمه على شكل حوار ومناقشة ، فكان يناقش في الدين والنظام الديموقراطي ويسخط على حكم الشعب ويستهزيء به ويهاجم الأخلاق السائدة والعادات الموروثة • كل ذلك أغضب عليه العامة من جهة ، والطغاة من جهة أخرى • لقد جندت له الارستقراطية بسبب مهاجمته العادات والأخلاق ، الشاعر « أريستوفان » للتعريض به والسخرية منه فلم ينل من عوده الصليب شيئاً • كان شديد الايمان بعقيدته ، يدعو الى حرية الفكر ولا يرضى بغيرها بديلا • وكانت أثينا ، على اختلاف مشاربها ، قد احتملت تعاليمه هذه مدة طويلة مما يدل على وجود جو الحرية الفكرية التي كانت تسود هناك • وعندما انتصرت الديموقراطية عام ٤٠٨ ق•م وعادت الى الحكم ، بدأت تفتش عن اولئك الذين لم يناصروها أيام كفاحها المرير فكان سقراط أحد أكباش الفداء • لقد اتهموه بأنه ضد النظام السياسي القائم ، وأنه ملحد أفسد عقول الشباب الاثيني ، وهو ما يدل على ان اتهامه كان سياسياً قبل أن تكون له علاقة بحرية الفكر أو غير • بعد ذلك حوكم وأعدم عام ٣٩٩ ق•م وكان آنذاك قد بلغ السبعين • وكان سقراط أثناء محاكمته قد نهض ليلقي خطبة رائعة متحررة خُلدت في

التاريخ باسم « دفاع سقراط » . ولقد سطر تلك الخطبة من بعده تلميذه النـــابه أفلاطون . وكان مما ورد في ذلك الدفاع حول حـــرية الرأي والمناقشة قوله :

« انكم لتجدون مني ناقداً منبهاً يثابر على دفعكم باللوم والاقناع، ويداوم على فحص آرائكم ، ويحاول أن يريكم انكم تجهلون فعلا ما تتخيلون عرفانه . ان الخير الأعظم ليبدو في بحث تلك الموضوعات التي تسمعونني أناقشـــها كل يوم ، وان الحيـاة لا تستحق الاعتبار اذا لم نقومها بهذا الحوار . » .

وهكذا كانت حكمة ســـقراط : انه لايؤمن بمنح الشعب حريات سياسية واسعة انما يؤمن بمنح الفرد حرية الفكر والضمير على أوسع مدى.

أما أفلاطون ، وهو ألمع تلامذة سقراط ، فقد وضـع في آخر أيامه مشروع دولة مثالية ، وقد جعل لتلك الدولة دينا يخالف الدين الشائع آنذاك أوسع مخالفة ، واقترح أن يجبر الناس على عبادة الآلهة الجديدة في دولته السعيدة ، وأن يعاقب من يخالف عبادة اولئك الآلهة بالسجن أو بالاعدام . وقد وضع نظاماً للطبقات في دولته ألغيت بمقتضاه حرية المناقشة التي كان يرمي اليها استاذه سقراط ، كما أقام نوعاً من الاشتراكية الممقوتة ، اختص بها الطبقة العسكرية ، وترك الطبقة الثالثة ، وهي ســواد الشعب ، كَمّاً مهملا واجبه تقـــديم ما يحتـــاجه الجيش والحكومة . وكانت الكنيسة

الكاثوليكية ، كما يظهر ، قد تأثرت بفلسفة أفلاطون هذه من بعده ، الى مدى غير قليل ..

وكان أرسطو من خصوم الديموقراطية اليونانية بسبب صلته الوثيقة بفليب وولده الاسكندر المكدوني الذي كان تلميذاً له ، ومع ذلك ، فانه لم يقترح في شأن الدولة والحريات العامة شيئاً ، انما قال أن « حسن الحكومة وقبحها شيئان اضافيان ؛ فالحكومة الحسنة ليست هي الملكية ولا الجمهورية ، أرستقراطية كانت أو ديموقراطية ، انما هي الحكومة الملائمة للشعب . فكل حكومة مهما تكن صورتها ، هي صالحة وخير اذا لاءمت روح الشعب ومنافعه » .

لقد كان من أثر الحرية الواسعة المباحة في أثينا أن ظهرت سلسلة من الفلسفات التي نبعت جميعها من محاورات سقراط . ولا ريب في أن الجهود العقلية التي بذلها أفلاطون وأرسطو والرواقيون والأبيقوريون والشكاك كان لها أثر في تقدم البشرية أعمق من أثر أية حركة عقلية موصولة الحلقات ، وقد لانستثني في هذا المقام الا نهضة العلم الحديث في عصر للحرية جديد .

وفي روما ، كان الاتجاه العام للسياسة الرومانية يميل الى التسامح والتساهل مع الأديان والأفكار المعارضة لعبادة الرومان الوثنية في جميع أنحاء الامبراطورية ؛ ولم يكن الالحاد ، أعني عدم الايمان بتلك الأوثان ،

ذنباً يعاقب صاحبه عليه ، يظهر ذلك واضحاً في المبدأ الذي قال به الامبراطور « تيبريوس » :

« اذا شعرت الآلهة بأنها أُهينت فلتتفضل بأن تقتص لنفسها » .

أما اضهاد الرومان للطائفة المسيحية عند ظهورها ، فيقول البعض ، أن الذي كان يقرأ المؤلفات المسيحية في ذلك العصر يستوثق بأن المسيحيين لم يكونوا ليتسامحوا مع شعائر أي دين آخر لو صاروا أصحاب الأمر في الدولة الرومانية . فاذا كان الاباطرة قد خالفوا سياسة التسامح في حالة واحدة ، هي اضطهاد الطائفة الجديدة ، فانهم كانوا يقصدون بذلك الاضطهاد حماية سياسة التسامح العامة . لذلك فانه عندما قرر قسطنطين الأكبر اعتناق المسيحية ، فان قراره ذاك كان فاتحة لألف عام ، هي القرون الوسطى التى عاشها الفكر في الأغلال واستُعبد فيها العقل استعباداً ، وتوقفت فيها حركة العلم والعرفان . ولقد اجتاحت أوربا خلال هذه الألف سنة موجة مخيفة من الاضطهاد الذي كانت تدير دولابه الكنيسة بمثابرة ونشاط . وكانت نظرية الاضطهاد الأساسية تبدو في الزعم القائل ان الكنيسة هي وحدها القادرة على خلاص الانسان ، وان من يخالف الكنيسة ملعون لعنة أبدية ، وان من واجبها أن تفرض على الناس اعتناق الدين الذي كانت تراه الحق لكي ينقذ الناس مصالحهم في الآخرة ويمنعوا الضلالة من الانتشار في الأرض . وكانت جريمة الالحاد ـ وهي هنا مخالفة الكنيسة ـ

قد أصبحت أفظع وأشنع من أية جريمة أخرى • وكانت الكنيسة ترى بأنه مهما ألحق الانسان من أذى بالملحدين ، فان هذا الأذى الدنيوي انما هو نعيم لهم اذا قيس بما ينتظرهم من تنكيل في الجحيم •

وكان اضطهاد حرية الفكر والضمير قد أدى الى تقييد كافة الحريات الفردية والعامة ، خاصة بعد أن سيطر البابلوات على كافة مكونات الدولة السياسية بالاضافة الى الدين ، فكان يكفي للبابا أو للكنيسة أن تفتي بالحاد كل من يحاول الخروج على سلطانها وحكمها الدنيوي فينفذ فيه حكم الموت ، فلم يعد هناك للناس من حرية يقررون بها شكل المجتمع الذي يريدون ، ولا أي أثر من آثار الحياة الكريمة التي كان يحياها الانسان في عهد اليونان والرومان •

كان المسيحيون في تلك الآونة في أوربا قد وقعوا فيما بينهم في صراع رهيب ، وهو ماكان يحدو بالامبراطور قسطنطين ومن جاء بعده الى اصدار المراسيم الكثيرة التي تأمر بابادة ومحق طوائف « المسيحيين الملحدين » • وكان من غريب الأمر أن ينبري رجل غير مسيحي ليعلم مسيحيي تلك الأيام درساً في الحرية الدينية ، وذاك هو «تمستيوس» الذي وجه رسالة الى الامبراطور «فالينس» طلب بها منه الغاء مراسيمه التي أصدرها لاضطهاد حرية مخالفيه من المسيحيين حيث قال له :

« ان سلطان الحكومة لايستطيع أن يؤثر في معتقدات الانسان الدينية•

وان الرضوخ للحكومة في هذا الأمر ، لاينتج الا اعترافات يحدوها الرياء والنفاق • انه لينبغي فسح المجال لكل مذهب ديني ، وان من واجب الحكومة المدنية أن تحقق سعادة الأفراد جميعاً سواء في ذلك من كانت معتقداته الدينية صحيحة أو سقيمة • ان الله نفسه ليبين لنا عن رغبته في أن يعبده الناس بوسائل شتى ، واننا لنستطيع الوصول اليه من ألف سبيل » •

وعلى عكس ماكان يجري هنا في أوربا ، فانه في فترة الألف عام المشؤومة هذه التي مرت على الغرب ، كان قد أطل على الدنيا في مطلع القرن السابع الميلادي دين جديد ، هو الاسلام الذي انطلق من الصحراء العربية محرراً العقول فهيمن على الشرق الأوسط واندفع غرباً نحو الأطلسي واجتاز أفريقيا الى أوربا وشعاره « لا اكراه في الدين » ، وبذلك انتقل مشعل الحرية الذي ناءت بحمله يد روما بعد أثينا ، الى اليد العربية ذات القبضة الجبارة التي رفعته عالياً في آفاق الدنيا وراحت تذود عنه بحد الحسام •

والحق فان ما كانت تتمتع به عواصم الخلافة الاسلامية في الشرق والغرب من مركز فكري حر ، يختلف ، بل انه ليتناقض التناقض كله مع ماكانت عليه عاصمة البابوية والكنيسة التي لم تكن تفكر في غير الاستبداد والارهاب آنذاك •

كان قد تشعب من الاسلام أكثر من مذهب فقهي • وفي الوقت الذي

كان فيه دولاب الارهاب يدور بضراوة ضد المسيحيين وغيرهم من الناس الذين يختلفون مع الكنيسة في الرأي ، كانت حلقات الدرس والمناقشة وتبادل الرأي تدور بيسر واخوة وصفاء بين فقهاء تلك المذاهب في مختلف عواصم الاسلام • وقد يكون هناك من قُتل وهو على غير مذهب الخليفة • غير ان أسباب القتل لم تكن لأسباب مذهبية تتعلق بحرية المعتقد المذهبي أو لأنه على غير مذهب الحكومة الديني بحال ، انما كان ذلك يرجع على وجه التأكيد لأسباب شخصية أو سياسية بحتة ، حيث ان الدولة كانت ترى وجوب حماية نفسها ممن تراه خطراً عليها ، سواء أكان الشخص الذى يمثل ذلك الخطر من هذا المذهب أم من ذاك • ولم تكن حرية الفكر والعقيدة الدينية والمذهبية وقفاً على العرب أو المسلمين فقط ، انما كانت ميسورة أيضاً لغير المسلمين ، على عكس ما جرى في أسبانيا مثلا ، حيث استمرت ابادة المسيحيين الذين هم من أصل عربي حتى القرن التاسع عشر• فالطوائف غير المسلمة كما هو معلوم ، كانت تمارس طقوسها الدينية وشعائرها بحرية تامة في ظل الحكم الاسلامي • وكان من هؤلاء ـ بالاضافة الى ذلك ـ من احتل المراكز الاجتماعية البارزة في الطب والمحاسبة والاعمال التجارية وغيرها • كذلك لم يتعرض الحكم الاسلامي للفلسفة بشيء ، فقد نبغ بين ظهرانيه الكثير من كبار الفلاسفة كالكندي والفارابي والغزالي والرازي وابن سيناء وابن رشد •

ان المذابح التي وقعت ، على سبيل الحصر ، في بغداد أيام الفتح الصفوي عام ١٥٠٨م ، وعلى يد الشاه عباس عام ١٦٢٣م ، وكذلك الأهوال التي شهدتها بغداد أيام حصار نادر شاه عام ١٧٣٣م ، أعمال ونكبات لم تقع في ظل الحكم العربي ، انما كانت بربرية وهمجية قام بها اناس أجانب من غير العرب ، مدسوسون على الاسلام ، اتخذوا من الاختلاف في الرأي والعقيدة المذهبية ذريعة لاقامة تلك المجازر واضطهاد الحريات وبذر الشقاق لأغراض سياسية الغاية منها اخضاع العراق للسيطرة الأجنبية .

ومهما تكن الحال فقد توفي سانت أوغسطين عام ٤٣٥م بعد أن شيد نظام الاضطهاد الذي امتد الى نهاية القرن الثاني عشر ، وذلك على أساس أحد الأمثال القائلة : « أجبروهم على الدخول في حظيرتكم » .

على ان الظاهر هو ان الأهوال التي شهدتها أوربا بسبب ذلك الاضطهاد كانت غير كافية في نظر الباپوات . ذلك ان البابا « انسنت الثالث » الذي جاء بعد انتهاء القرن الثاني عشر ، ومن خلفه من بعده قد قرروا القيام بحملة مخيفة على « الملاحدة » ، فكان أن افتتحوا حملات الابادة بحرب بربرية شنوها على « الألبيجوا » وهم رعايا كونت تولوز في جنوب فرنسا الذين لم يكونوا يقدمون للكنيسة شيئاً ، فسالت دماء هؤلاء المساكين أنهاراً وعمهم الدمار والويل حيث قامت الكنيسة بشنق الرجال والنساء والأطفال على حد سواء عام ١٢٢٩م . كذلك قررت الكنيسة أن ليس لحاكم أو أمير

أن يحتفظ بعرشه ما لم يستأصل الالحاد ، وان هو تردد في تنفيذ أوامر البابا بتعذيب الملحدين فان أراضيه وأملاكه تُصادر وتستباح من قبل الكنيسة ويضطهد هو نفسه ؛ وهكذا قام نظام أصبح فيه البابوات وهم الحاكمون بأمرهم في كل شيء .

ولما كان لايمكن للكنيسة أن تقتلع الالحاد من جذوره الا باكتشاف أوكاره الخبيثة التي لم تمت بهزيمة الالبيجوا ، فانها أسست نظاماً للبحث عن «الزنادقة» وهو ما سمي «بنظام التفتيش» الذي أقامه البابا « غريغوري التاسع » عام ١٢٣٣م ، ثم اكتسب صفته القانونية عام ١٢٥٢م على عهد البابا «انسنت الرابع» فأصبح الارهاب والاضطهاد الديني والمذهبي عنصراً من عناصر الكيان الاجتماعي في كل دولة ومدينة وهو ما لم يعرف له مثيل في اضطهاد حريات الناس في التاريخ .

بعد ذلك بسط «التفتيش» ظله على أوربا فكانت له محاكم كثيرة في جميع أنحاء القارة ، وتعاون الحكام الزمنيون معه ووضعوا تشريعات في غاية الهمجية والقسوة لابادة الالحاد ومكافحته والعقاب عليه فكان أبرز وسائل العقاب والاعدام هو الخازوق .

وكان مرسوم الايمان قد جند الشعوب الاوربية برمتها لخدمة نظام التفتيش فجعل من كل فرد جاسوساً على أبيه وأخيه وجاره ، وألزمه بوجوب الاخبار فوراً عن كل «ملحد» يعلم عنه شيئاً والا فان سوء العذاب

بانتظاره ، فكان أن استعبدت شعوب بكاملهـــا ، وخضعت خضوعاً أعمى للكنيسة بعد أن شُل تفكيرها ، وأصبحت الوشاية والنميمة ذات منزلـــة دينية رفيعة .

كذلك كانت محاكم التفتيش غريبة في بابها ، فقد كان المتهم يعتبر مجرماً ما لم يثبت هو براءة نفســـه ، وكان يسمح لذوي السمعة السيئة بالشهادة ضد المتهمين وليس لصالحهم ، كما كانت الصعوبات الكبيرة توضع حجر عثرة أمام شهود النفي ، كل ذلك على أسس نظرية سادية وحشية جاء بها التفتيش حيث كان يقول : « ان تعذيب مائة من الأبرياء خير من افلات ملحد واحد . » .

وكان القاضي الأكليركي يحكم فقط في أن المتهم ملحد ، بعدها يسلم المحكوم عليه الى الحاكم المدني مع توصية « بالرأفة به والاحسان اليه » ، وهو ما معناه تنفيذ حكم الاعدام بعد أبشع وسائل التعذيب ؛ وكان الحاكم المدني لا يتأخر لحظة في الأمر بتعذيب ذلك المحكوم عليـــه فور استلامه الوصية المذكورة ، ثم سوقه بعد ذلك الى الاعـــدام بالخازوق ، والا فان الحاكم المدني نفسه سيتهم بالالحاد وترويجه ويلاقي نفس الجزاء .

ونتيجة لتعطل الفكر وأسره في سلاسل الكنيسة في أوربا ، فقد تعطل العلم وكوفحت حرية البحث العلمي . ذلك ان قصـــة « خلق الكون » و « خطيئة الانسان » وغيرها ، كانت قد عطلت علم الجيولوجيا وعلم الانسان،

ثم علم الحيوان عن العمل • وكان المفهوم ان الانجيل يؤيد دوران الشمس حول الأرض ، فحرمت بذلك الكنيسة القول بكروية الأرض • وفي القرن السادس عشر ، كان العالم «سرفيتيوس» قد أُحرق بالنار حياً لكونه صدق ما قاله أحد الجغرافيين الأغريق القدامى من أن أرض الميعاد قاحلة في حين يصفها الانجيل بأنها تفيض بأنهار اللبن والعسل • ولقد فرض القديس أوغسطين على الناس أن يؤمنوا بأن الامراض تحدث بفعل العفاريت ، أما لوثر ، فقال انها من صنع ابليس اللعين ، بعدها أصبحت هناك تجارة ضخمة من التعاويذ والحجابات التي تصدرها الكنيسة للقضاء على المرض وابعاده ، فكان واردها من تلك التعاويذ يفوق الخيال • وفي خلال القرن الرابع عشر، كانت هناك محاولة مخيفة منظمة لابادة «السحرة» • وقد كان الطـــاعون الذى اجتاح أوربا تلك الايام قد عزته الكنيسة الى عمل الســحر فكـانت هناك محاكمات مروعـــة وتفتيش عن السحرة ، وخاصة النساء ، مثـــل التفتيش عن الملحدين ؛ وكان العقـاب يجري بالحرق والخازوق أيضاً ، بعدها أصبحت ابادة السحرة مظهرا بارزا من مظاهر الحضارة الاوربيـة التي ذبحت الحريات تحت أقدام بابواتها • وكان اولئك البابوات يستغلون في تصرفاتهم الظالمة ، يستغلون لصالحهم وعلى اسوأ الوجوه ، احدى وصايا الكتاب المقدس القائلة : « انك لاينبغي أن تترك ساحرة على قيد الحياة » • ولم تشهد البشرية قصصاً أشد ايلاماً للنفس من قصة تعـذيب الساحرات

والتنكيل بهن ، والذي بلغ مداه الأقصى في انجلترا واسكتلندا • ولقد بقي الحال على هذا المنوال مدة طويلة اصطبغت خلالها دول أوربا بدماء أبنائها الأبرياء • كان دولاب الاضطهاد يدور بقسوة ووحشية بموجب مراسيم مقدسة • ولقد أصدر البابا «أنسنت الثامن» مرسوماً يؤكد فيه بأن الأوبئة والظواهر الطبيعية كالعواصف ونحوها انما هي من عمل الساحرات ، وهو ماكان يلقي في روع الناس الخوف من قدرة الساحرات الجهنمية •

وفي هزيع من ذلك الليل الأوربي الاسود الطويل ، كان «ابن رشد» قد خرج من البلاط الأندلسي مغاضباً أو مغضوباً عليه • وعندما دفع العالم العربي الاسلامي بتعاليم فيلسوفه العظيم الى باريس ، تأسست هناك مدرسة من المفكرين الأحرار في جامعتها ، وهو ما أحـــدث من بعد ، ثورة من ثورات الحرية الفكرية التي ساهمت في نهوض أوربا بعد ليلها الطويل • ولقد حرم البابا « جون الحادي والعشرون » نظرية ابن رشد في « الحق المزدوج » على عقول الناس • لكن طبول ابن رشد راحت تدوي في أربعة أركان أوربا تحت جنح ذلك الليل ، معلنة للبابوات الذين تملكهم الرعب ، وللشعوب الرازحة في سجون الكنيسة ، ثم للمتطلعين الى فجر الحرية ، بأن صبحاً سيطل على أوربا ، وانه لاشك قريب •

لمن تقرع الطبول ؟

كانت فلسفة ابن رشد ذات الجذور الطاعنة في الفلسفة اليونانية قد اجتازت باريس الى ايطاليا فنبهت أفكار الناس هناك الى ضرورة الاطلاع على فلسفتهم وآدابهم الرومانية واليونانية القديمة • وكانت الظروف السياسية والاجتماعية في دويلات ايطاليا التي كان بعضها جمهورياً آنذاك ، مما يساعد على العودة والاتجاه الى تلك الفلسفة والآداب فنتجت عن ذلك حركة امتدت من ايطاليا الى شمال أوربا فكونت ما سمي في التاريخ « بالنهضة » ، أي نهضة الأفكار والحضارة اليونانية والرومانية القديمة ، كما سمي العصر الذي وجدت فيه هذه الحركة «بعصر النهضة» • وكان من حسن حظ الناس أن اخترعت الطباعة في ذلك العصر فبدأت تلك الفلسفة والآداب

تنتشر على نطاق واسع ، خلق جواً فكرياً تمكن فيه العقل ، خلال القرن الرابع عشر والقرون التي تلته ، من تسليط الضوء على مساوىء الكنيسة التي كانت تنزع الى السيطرة على العالم كله عن طريق تعاليمها بكل وسيلة ممكنة • وكان ابتزاز أموال الناس الذي لجأت اليه الكنيسة باصدارها «صكوك الغفران» مقابل ثمن ، طعنة نجلاء سددتها الكنيسة الى صدرها هي في ذلك العصر الذي بدأت تتفتح فيه عيون الناس ، فظهر من يطالب بالاصلاح الديني أمثال «لوثر» و «كلفن» •

على أن الاصلاح الديني لم يكن انتصاراً للحرية مع الأسف الشديد • ان زعماء « الاصلاح الديني » كانوا قد أزالوا « سلطة نقلية » لتحل محلها «سلطة نقلية» اخرى • انهم أزالوا سلطان الكنيسة وأقاموا بدلا عنه سلطانهم • فمارتن لوثر مثلا ، لما اطمأن وأصبح صاحب القوة والسلطان ، راح يدعو الى «مذهبه الحق» بأن تفرضه الدولة على الناس بالقوة ، واعتبر كل من يخالفه في الرأي «ملحداً» ثم جعل من واجب الدولة ابادة «الملاحدة» لانهم من أعوان الشيطان ، كما كان يعتقد • ثم قرر بأن الدولة ما وجدت الا لغرض «حراسة الايمان» ، ثم راح يدعو الى الحكم بالاعدام على كل من يخالف فكرة «تعميد الأطفال» • وهو لكي يركز سلطانه ويتجبر بصورة أكبر ، فانه انحاز الى جانب الحاكم أو الأمير المستبد بأن فرض على الناس حق طاعة الأمير في جميع شؤون الدنيا والدين •

على ان كلفن كان قد فاق أخاه لوثر في اضطهاد الحريات • ذلك انه لم يسلم السلطة المطلقة الى يد الحاكم المدني كما فعل لوثر ، انما دعا الى تسلط الكنيسة الكلفنية على الدين والدولة لاقامة « الحكومة الالٰهية » الي أقام نموذجاً لها في جنيف • وكانت حكومة كلفن تلك قد سحقت الحريات بأقدامها وراحت تذيق كل من يخالف آراء كلفن سوء العذاب والموت الزؤام بلهيب النار • ولقد حكمت تلك الحكومة الكلفنية على اللاجيء الاسباني الكاتب «سرفيتيوس» وأحرقته حياً بالنار عام ١٥٥٣ لأنه كان قد كتب في بلاده اسبانيا يوماً مقالا انتقد به فكرة «الثالوث المقدس» • والظاهر ان أتباع كلفن قد ثابوا أخيراً الى رشدهم في مطلع القرن العشرين، فأقاموا نصباً تذكارياً للمسكين «سرفيتيوس» في جنيف عام ١٩٠٣ ، يطلبون بواسطته من الله العفو والمغفرة لمصلحهم كلفن بسبب الجريمة التي ارتكبها باحراق ذلك الكاتب الحر •

وكانت حركة الاصلاح الديني قد ساعدت على انتصار الحرية بطريق غير مباشرة • ذلك انها شقت صفوف الكنيسة التي كانت واحدة من قبل ، فأصبح الآن في الميدان عدة كنائس متخاصمة مع بعضها ، يسهل لأحرار أوربا الانتصار عليها بضرب سلطة كل منها على انفراد • وكان من آثار الاصلاح الديني أيضا أن جن جنون الكنيسة الرومانية حيث يجلس البابا، فأعادت تنظيم صفوفها استعداداً لخوض معركة طويلة ضد الحريات •

وحيث كانت أذرع المطابع المخترعة حديثاً قد بدأت تدور بسرعة مخيفة ، فان البابا «بولس الثالث ـ ١٥٣٤م» كان قد هيأ «دليـــلا للكتب المحرمة» وأعاد تنسيق نظام التفتيش •

وقبل هذا البابا كان قد أعدم « سافونارولا » في فلورنسا بسبب القائه محاضرة عن الحياة الفاضلة عام ١٤٩٨م وذلك في عهـــد البابا «اسكندر السادس» الذي اشتهر بتهتكه وفجوره • ثم كانت جريمة الكنيسة الكبرى باحراقها العالم الفيلسوف «جيوردانو برونو» حياً بالنار في روما عام ١٥٩٢• وكان ذنب «برونو» هو انه اعتقد بخلود المادة ، وحول الفلسفة الأبيقورية الى نوع من الصوفية القائلة بوحدة الوجود ؛ وما كان يجري في ايطاليا من اجرام بحق الحرية ، كان مثله يجري في كل مكان في أوربا ، وخاصـــة في اسبانيا ، ثم في انكلترا أيام حكم «اليزابيث» و «جيمس الاول» في ذلك العصر • غير ان دواليب المطابع كانت قد أصبحت تدور بسرعة وبشدة ••

ففي عام ١٥٤٣ ، وعندما كان «كوپرنيكس» على فراش الموت ، نشر كتابه لأول مرة عن حقيقة حركة الأرض ودورانها حول الشمس ، فزلزل بذلك الأرض تحت أقدام الكنيسة التي انضم الى خصومها من رافعي ألوية المعرفة اليونانية وتلامذة ابن رشد ، خصم عنيد جديد ، فانه عندما أثبت «غاليليو» صحة نظرية «كوپرنيكس» واستطاع أن يكتشف بتلسكوبه توابع المشتري ، وأن يضبط دورة الأرض بملاحظته كلف الشمس ، جن جنون

رجال الكنيسة وراحوا يلعنون اكتشافاته الرائعة • وعندما كان وعاظ فلورنسا ، التي كان يعيش غاليليو في حماية دوقها ، يمرون بتلامذته ومريديه الذين كانت عيونهم شاخصة الى فوق ، كانوا يصيحون بهم مزمجرين : « مالكم أيها الأبالسة تحدقون هكذا في السماء ؟ »

وفي شباط ١٦١٦م صدر مرسوم عن « المكتب المقدس » يقول بأن النظام الكوپرنيكي باطل وانه «الحاد» في نظر الكتاب المقدس• بعد ذلك وضع كتاب كوپرنكس في قائمة الكتب المحرمة واستدعى غاليلو الى روما ليعطي على نفسه ميثاقاً بأن لايعود الى آرائه الشيطانية • غير ان غاليليو كان حسن الظن جداً بالكنيسة عندما طبع كتابه الثاني الذي صدر عام ١٦٣٢ والذي حاول الوقوف به موقف المحايد من «النظام البطليموسي» القديم و «النظام الكوپرنيكي» الجديد • ذلك ان البابا أمر باحالته الى محكمة التفتيش فور صدور الكتاب • وكان غاليليو آنذاك قد أصبح شيخاً طاعناً في السن ، محطم الأعصاب ، لايقوى على احتمال المحاكمات المخيفة التي تنتهي بالحكم على أحرار الفكر بحرقهم أحياءاً في النار • وفي نهاية المحاكمة ، وبعد أن هدده المفتشون بأقسى أنواع العذاب صرح : « بأنه كان يؤمن بصحة نظرية كوپرنيكس قبل صدور مرسوم سنة ١٦١٦ الذي حرمها وأمر ببطلانها • أما بعد صدور هذا المرسوم فانه أصبح يؤمن بنظرية بطليموس الفلكية القديمة ، ايماناً لا شائبة فيه » • بعد ذلك أجبره المفتشون أن يقسم يميناً

أمام الناس بأنه ينكر الحقائق العلمية التي اكتشفها ، ثم فرضوا عليه الاقامة الاجبارية في احدى القرى حيث حرم عليه مواجهة أحد . ولقد حفظ لنا التاريخ رسالته التي كتبها الى أحد أصدقائه في أواخر أيامه ، مبيناً فيها موقف الكنيسة منه حيث جاء فيها :

« ان بطلان نظرية كوپرنيكس أمر لا ريب فيه ، وخصوصا عندنا نحن الكاثوليك ، فانها مرفوضة بنص الكتاب المقدس الواجب الطاعة . وانه ليمكننا أن ننبذ جميع تقديرات كوپرنيكس وتلامذته بحجة واحدة قاطعة : هي ان قدرة الله عز وجل تستطيع أن تعمل بوسائل مختلفة لا نهاية لها . واذا كان بعض الاشياء يبدو لعقولنا انه يحدث على هيئة ما ، فاننا لا ينبغي أن نخدع أنفسنا ونغل يد الله عن أن تحدثه على هيئة أخرى . »

بعد ذلك حرمت كتب غاليليو وبقيت في قائمة الكتب الممنوعة في روما حتى عام ١٨٣٥م . كذلك أصبحت المطبعة عدوا مخيفا يرتعد منه الباپوات والملوك ، فكان أول مرسوم صدر بالسيطرة على المطابع وانتاجها هو ذلك الذي أصدره عام ١٥٠١ الپاپا « اسكندر السادس » ثم أصدر هنري الثاني ملك فرنسا أمرا يقضي باعدام كل من يطبع كتابا دون اذن رسمي ، ثم فرضت الرقابة على المطابع في المانيا عام ١٥٢٩ ، وفي انكلترا أسست محكمة خاصة للنظر في شؤون الطباعة فلم يكن يسمح بوجود المطابع الا في اوكسفورد وكيمبرج ولندن . ولقد كان « ملتن » شاعر عصره وبطل

الحرية الانكليزية ، المدافع الاول عن حرية المطبوعات في انكلترا • وكانت رسالته المسماة « آريو ياجيتيكا » دفاعا رائعا عن حريـة المطبوعات وبقيـة الحريات •

وكان الشعور بكرامة الانسان ، والاتجاه العقلي نحو الحياة ، والتطلع الى المعرفة الدنيوية ، يقود الناس بقدم ثابتة نحو الحرية ، كهدف وحق من حقوق الانسان خلال الصراع المرير الذي كان يجري بين الكنيسـة الرومانية التي أعادت تنظيم صفوفها ، وبين العناصر الانسانية الحرة التي احتضنت بجرأة وبسالة ، المفاهيم التي قام عليهـا عصر النهضـة • وبذلك استطاع العقل والنقد التاريخي والتأمل الفلسفي والعلوم الطبيعية الجديدة تركيز اهتمام الانسان في مصير الجنس البشري على هذا الكوكب بدلا من تركيزه في مصيره في العالم الاخر ، فكان أبطال الحرية والتسامح الديني يظهرون على مسرح الاحداث والكفاح بطلا اثر بطل ، كل ذلك مع استمرار الزحف العقلي الهادف الى تحرير رقبة الانسان من سيطرة الكنيسة أولا ، ثم من كل سيطرة استغلالية اخرى في المجتمع •

كان المصلح الايطالي « فاوستو سوتزيني » الذي عرف بعد باسـم « سوسينوس » قد أسس حركته التي تحرم الاضطهاد الديني عام ١٥٧٤ • وكانت هذه الحركة تؤمن بالتوحيد وترفض فكرة الثالوث المقدس ، وقد استطاعت الكنيسة سحقها في ايطاليا ففر أتباعها « الملحدون » الى سويسرا ،

ثم منها ـ بسبب تعصب « كلفن » ـ الى ترنسلفانيا وبولونيا لينشروا افكارهم من هناك بهدوء . وكانت أفكار هؤلاء الثوريين التقدميين آنذاك ، تنتقل معهم من بلد الى بلد خلال ملاحقتهم من بولونيا الى المانيا ثم الى هولندا فبريطانيا . ولقد استطاع مبدأ الحرية الدينية وعدم استعمال الاضطهاد أن يثبت أقدامه في أوربا بفضل الافكار التي أذاعها « سوسينوس » . ومع ذلك ، فانه لم يكن يدعو الى فصل الكنيسة عن الدولة .

وفي الوقت الذي كانت فيه دواليب المطابع تدور سرا وعلنا منتجة المطبوعات التي تشعر الانسان بكرامته وتقلل من شأن رجال الدين الذين أصبحوا ينتسبون الى كنائس ـ كاثوليكية وبروتستانتية ـ متنازعة مع بعضها في قتال مبيد مخيف ، ارتفع صوت الاحرار يطالبون بفصل الكنيسة عن الدولة لوضع حد لما كان يعانيه الانسان من مظالم في أوربا ، فسمعنا أول ما سمعنا أصوات « منكري التعميد » تدوي مطالبة بالحرية لجميع الاديان والمذاهب ، وبفصل الكنيسة عن الدولة فصلا تاما .

وكان البيوريتان ، أتباع كرومويل الذين فروا الى أميركا وأسسوا لهم مستعمرات في « نيو أنكلند » تخلصا من اضطهاد الكنيسة والحكومة الانكليزية لهم ، غير متسامحين ، بدورهم ، مع خصومهم الكاثوليك والانجليكان وغيرهم . وكان أن ظهر بينهم رجل حر يدعو الى فصل الكنيسة عن الدولة فأخرجوه من بينهم « كملحد » ملعون ، فذهب الى

« ماساشوستس » وأنشأ في ذلك الاقليم مدينة « بروفيدنس » التي أصبحت ملجأ لمن يضطهدهم البيوريتان المستعمرون ، ثم أقام فيها حكومة وضع لها دستورا يفصل بموجبه السلطة الدينية عن الدولة ، كما أباح فيها حرية اعتناق أي مذهب مسيحي ، ثم تسامح مع بقية الاديان الاخرى ، ومنح المسيحيين حقوقا سياسية كاملة ، فكان « روجر وليامز » ، وهو مؤسس هذه الحكومة ، أول من أسس حكومة مدنية تقوم على اساس فصل الكنيسة عن الدولة قبل قيام عصر الثورة الفرنسية •

وعندما بدأ الاحرار يشعرون بأن فصل الكنيسة ضرورة ومطلب آني من مطالب الشعوب ، بدأت تظهر قبل قيام الثورة الفرنسية فلسفات في الحرية والاجتماع والدولة الصالحة المنشودة ، فكان هناك في أوربا كتاب وفلاسفة ، منهم الرجعيون والمحافظون ، ومنهم التقدميون الثوريون الذين ظلوا يكتبون سرا وعلنا مدة طويلة الى أن تهيأت أفكار الناس للخروج بالثورة من حيز التهامس والكلام الى حيز التطبيق •

ففي انكلترا ، كان أبرز الكتاب الرجعيين ، الفيلسوف الانكليزي « توماس هوبز » (١٥٨٨ – ١٦٧٩) الذي قال ان الانسان اناني بطبعه ، وانه جبل على الاعتداء على حريات الاخرين ، وان تركه على هواه يؤدي بالمجتمع الى الفوضى والنزاع المستمر • ولاجل التخلص عن مثل هذه الحالة ، اقترح « هوبز » أن يتنازل الناس عن بعض حقوقهم ويسلموها

لشخص واحد تكون بيده السلطة المطلقة وأن تكون أوامره بمثابة القانون واجبة الطاعة من قبل الجميع • وقد أشار هوبز بأن هـذا الشخص المطلق السلطة يجب أن يكون الملك الذي اذا ما نصب على العرش ، فليس لاحد من حق في محاسبته أو الثورة عليه لانـه أشـغل منصـبه بموجب ارادة الشعب • وكان هوبز من معلمي أولاد الطبقة الارستقراطية الانكليزية ، وقد تأثر الى حد كبير بحالة تلك الطبقة الاجتماعية وهو ما ظهر بارزا على فلسفته •

اما « جون ملتن » حامل مشعل الحرية الانكليزية ، فانه كان يدعو الى النظام الجمهوري ويدعو الى منح المواطن جميع حقوقـه في الحريـة والحياة الكريمة ، وكانت لدى ملتن أفكار مشابهة لامثاله من الاحرار الذين أتوا بعده حيث كان يقول أن : « ليس هنالك شخص له نظر ثاقب ومعرفة واسعة يتمكن من نكران الحقيقة القائلة ان الناس جميعا انما ولدوا أحرارا ، وان سلطة الملوك والحكام انما هي وديعة مؤتمنة بأيديهم من قبـل الشعب لخير المجموع وصالحه » •

وأما « جون لوك » (١٦٣٢-١٧٠٤) فقد اعتقـد بنظرية العقـد الاجتماعي وذهب الى عكس ما ذهب اليه « هوبز » فقال بأن السيادة للشعب وما الحكام الا افراد نيطت بهم مهمة أداء الخدمات العامة لمصلحته • وان للشعب حق مطالبة هؤلاء الحكام بتأدية الحساب عن أعمالهم ، كما ان من

حقه استرجاع السلطة التي أودعها أيديهم • كذلك فان لوك قال بأن الفرد وحريته وكرامته وسعادته هي أساس الحياة الاجتماعية • لذا فانه كان قد دافع بحرارة وحماس عن حرية الفرد ضد البابا وضد الملك • وكان قد رأى أيضا أن الثورة حق من حقوق الشعب اذا فشلت الحكومة في اداء مهمتها ، وان ذلك ليس عصيانا أو تمردا ضد النظام العام ، كما قال « هوبز » ـ أما عن السلطات ، فانه دعا الى فصل السلطتين ، التشريعية والتنفيذية ، عن بعضهما ووضعهما تحت مراقبة الشعب ليسحب ثقته منهما متى أساء القائمون عليهما استعمالهما •

وفي انكلترا ايضا ، كان « توماس پين » أكبر الكتاب السياسيين الثوريين الانكليز في القرن الثامن عشر • لقد حمل « پين » على كل نظام حكم وراثي معتبرا اياه نظاما مفروضا على الشعب ، وان من حق الشعب طرحه جانبا والتخلص منه ، كما اعتبر الحكومة الصالحة الشرعية ، انما هي تلك التي تستمد سلطاتها من الشعب وتمثل رغباته الحقيقية وآماله في الحرية والحياة الكريمة • فاذا كان أفراد أمة ، كما قال « پين » ، يكابدون العوز والفاقة ، تهد الامراض كيانهم ، وتنتابهم الشجون ، وهم في جهل مطبق وشقاء مستديم ، فلتعلم تلك الامة اذن ، بأن نظامها غير صالح ، وان حكومتها مقصرة في اداء واجباتها تجاه المجتمع •

وكان « توماس پين » قد وضع كتابه المعروف « حقوق الانسان »

ردا على « ادموند برك » في كتابه « تأملات في الثورة الفرنسية » • ولقد بين « پين » في كتابه مساوىء الحكم المطلق ، وحقوق الانسان الطبيعية التي لا يمكن أن يتنازل عنها لاية سلطة في الارض ، وهي حقه في الحرية والمساواة والخير العام • وكذلك حلل في ذلك الكتاب طبيعة النظام القائم في انكلترا على عهده ، وأظهر نواقصه وعيوبه وشرح طرق اصلاحه ، فانتشرت بين الشعب الانكليزى روح حية للمطالبة بالاصلاح المنشود ، لكن بغض الانكليز ليعاقبة الثورة الفرنسية ، وخوفهم من اعتداء الفرنسيين عليهم ، كان قد خفف كثيرا من الحماس الثوري في انكلترا ، فاتجهت ، بعد لاي طويل ، نحو تحقيق مكاسبها في الحرية عن طريق الاصلاح •

وكان « توماس پين » قد خرج من قبل من انكلترا ثائرا ، فقصد أميركا ومنح الجنسية الاميركية • وهناك في نفس السنة التي أعلنت فيها وثيقة أعلان الاستقلال ، وضع كتابه المسمى « الفهم » وذلك عام ١٧٧٦ • ولقد وجه « پين » في كتابه هذا حملة قوية على النظام الملكي الوراثي ، وقال ان النظام الدستوري الانكليزي غير صالح للتطبيق في أميركا ، ودعا الاميركيين الى اعلان انفصالهم عن انكلترا ، وتأسيس جمهورية ديموقراطية تكفل الحريات العامة وتلتزم بالمباديء الانسانية •

أما كتابه « عصر العقل » ، فقد حمل فيه على المسيحية حملة كاسحة وفند فلسفتها ، ودعا الى اتباع سنة المنطق السليم والتفكير السديد •

وكان « بين » يتهكم بالحكم الملكي ويقول : « ستضحك انكلترا من نفسها يوما لانها تستورد من هولندا أومن هانوفر أو من برونزويك ـ يقصد بذلك ملوك انكلترا الغرباء ـ شخصا ، تنقده مليون جنيه سنويا ، في الوقت الذي لا يفهم فيه شرائعها ولا لغتها ولا مصالحها ، وقد يكون عديم الكفاءة لدرجة لا يؤتمن معها على أن يكون شرطيا في احدى القرى » .

وكانت آراء توماس بين قد أثرت بصورة عامة على فلسفة « توماس جفرسون » الذي حرر لائحة وثيقة اعلان حقوق الانسان الاميركية .

اما في فرنسا فقد كان هناك من أبطال الحرية الكثير ، وعلى رأسهم فولتير ومونتسكيو وروسو وديدر ، الذين كانوا يعتبرن أعلامها البارزين آنذاك .

كان « فولتير » يرمي الى الدفاع عن حرية الفكر والمعتقد الديني ، والى حماية الفرد من تعسف السلطات الحاكمة ، روحانية كانت أو زمنية ، والى فك العقول من قيودها وتحريرها من عبودية التعصب الذميم . ولقد كان اكبر داعية لتحكيم العقل في حل كافة المعضلات ، كما كانت له الثقة التامة به في تطور البشرية وتقدمها . لذا فقد كان هجومه عنيفا على كنيسة روما الكاثوليكية اعتقادا منه انها كانت واقفة حجر عثرة في طريق التقدم البشرى ، كما انه كافح الظلم والعدوان ، فكانت له وقفات مشهودات في الدفاع عن المضطهدين والمظلومين .

وكان « فولتير » يعتقد بأن طبيعة الكون تثبت انه مصنوع بيد مهندس ذي عقل وارادة • كذلك فانه يعتقد بأن الايمان بوجود الـه أمر لابد منه لضمان الاخلاق • وكان الناس يعتبرون عدوا للمسيح والمسيحية بسبب الحملات الشعواء التي شنها على الخرافات ، والحاحه على وجوب التسامح الديني • وكان فولتير قد تأثر الى حد كبير بالكتاب الانكليز ، وعلى رأسهم « لوك » و « بولينجبروك » السياسى الملحد الانكليزي الذي عاش منفيـا في فرنسا • وعندما اصبح الاضطهاد والخرافات قضية فاضـحة مخجلة في فرنسا بعد منتصف القرن السابع عشر ، فان صواعقه بدأت ترعد ضـد المسيحية ذاتها فأصدر كتابه « مقبرة التعصب » الذي نشره عام ١٧٦٧ م وبدأه بأن قرر أن مثل الانسان الذي يعتنق دينه ، كما يفعل اكثر الناس ، دون أن يحققه ، كمثل الثور الذي يقبل أن توضع في عنقه « عدة المحراث »• وهو بعد أن يتوجه بهجوم هائل على المسيحية يقول فيها : (انه لأعمى ذلك الذي يفضلها على « دين طبيعي » بسيط يشمل الدنيا بأكملها) •

وعندما فصلت الكنيسة عن الدولة بدستور عام ١٧٩٥ الذي ضمن حرية العبادات كلها في فرنسا ، كان قد وجد هناك دين عقلي جديد سمي « بدين المحبة البشرية » ، وكان هو نفسه « الدين الطبيعي » الذي دعا اليه « فولتير » وبعض الفلاسفة والشعراء من معاصريه • وكان من مباديء ذلك الدين : « الايمان بالله والخلود والاخوة الانسانية وعدم التعرض للأديان

الاخرى واحترامها وتكريمها كلها » • ولقد بقي ذلك الدين قائما بين ظهراني الشعب الى أن قضى عليه نابليون بونابرت بأعادة البابا الى المسرح السياسي عام ١٨٠١م •

اما مونتسكيو ، فقد كانت طريقة بحثه طريقة علمية • ففي كتابه « الرسائل الفارسية » ، حاول اظهار عيوب المجتمع الفرنسي القائم آنذاك على لسان سائحين فارسيين موهومين • واما في كتابه « روح القوانين » ، فقد شرح فلسفته السياسية والاجتماعية ، وأظهر العلاقة الوثيقة بين القوانين وبين دستور الحكومة ، فتوصل من دراسته ومن بحثه في الدستور الانكليزي ، وتحليلاته للواقع الفرنسي ، الى ان خير الدساتير التي تضمن الحرية والعدل الاجتماعي والمساواة ، انما هي تلك التي تكون فيها السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية مفصولة كل منها عن الاخرى •

أما « جان جاك روسو » ، فانه اذ يكتب في الحرية والاجتماع والحكومة والدين والدولة ، نراه يضع كتابه « العقد الاجتماعي » الذي يفتتحه قائلا :

« يولد الانسان حرا • اما عن حياته ، فانه لم يزل يعيش اينما وجد ، مكبلا في سلاسل وأغلال من حديد •

وقد يعتقد البعض بأنه سيد الاخرين في المجتمع • ولو درى ، فانه أشدهم عبودية ، وانه بين الجماعة من عبوديته في جهد جهيد » •

لقد ناقش « روسو » في كتابه قول أرسطو القائل : « ان جميع الناس متساوون طبيعيا ، الا ان منهم من يولد للعبودية ومنهم من يولد ليسود » ، فرفض هذا الرأي بشدة ثم قال : « ليس لأقوى الناس من القوة ما يبرر كونه « سيد الجماعة » أبدا ما لم يحول معنى القوة الى معنى ومفهوم الحق ، وما لم يحول معنى الخضوع والطاعة الى معنى ومفهوم الواجب .... ان وجود قوة المرض لم تخلق للمرض علي حق الموت ، بل على العكس فانها خلقت لي حق الكفاح من أجل الحياة باستدعاء الطبيب . وان وجود المسدس بيد قاطع الطريق لم يخلق له حقا في كيس نقودي ، وانما خلق لي حق الدفاع عما أملك وحق كفاح قوة الشر بقوة الخير » .

وكان « روسو » قد وقف مدافعا عن الحرية في عصره عندما تصدى في كتاب « العقد الاجتماعي » لأحد الكتاب الرجعيين المدعو « كروتيوس » بأن وجه نار قلمه المحرقة الى « النظام الملكي » والعبودية التي كان يدعو اليها ذلك الكاتب الرجعي . وكان « كروتيوس » قد كتب قائلا : « لم لا يكون في الامكان تخلي جميع الناس عن حرياتهم للملك ليكونوا رعية له مادام باستطاعة الفرد التخلي عن حريته ليصبح عبدا لاحد السادة ؟ » .

وكان « روسو » قد اتخذ من هذه الدعوة السخيفة منطلقا لهجومه فقال [« ان كلمة « يتخلى » مثلا ، تعني أن يعطي بلا ثمن ، كما انها تعني أن « يبيع » بثمن . فاذا كان الانسان يتخلى عن حريته لا على سبيل الهبة ،

انما ببيعها للسيد ولو بأبخس الاثمان ، كاللقمة لادامة الجسم في الحياة مثلا ، فبأي ثمن ترى ، تتخلى الرعية عن حرياتها ببيعها اياها للملك ؟ .

اذ انه علاوة على ان الملك بعيد كل البعد عن اطعام واعاشة رعيته ، باعتباره غير مقتدر على ذلك ، فانه عالة على هذه الرعية ، اذ هي نفسها التي تطعمه وتقوم باعاشته . فاذا اخذنا بقولة « رابوبيه » القائل ان الملوك لا يمكن أن يعيشوا على لا شيء ، بالاضافة الى تخبطات « كروتيوس » هذه ، فان الملك بعد ان يستنفد ماتملكه الرعية من سلع وبضائع ، سيضع يده على الاجسام والارواح . ولست أدري ماذا سيبقى لهؤلاء المماليك من أنفسهم بعد ذاك »] .

وهو بعد أن يفند أقوال كروتيوس حول الهدوء الموجود في ظل الحكم الملكي المطلق ، يشير الى أن الهدوء موجود أيضا في أعماق السجون المظلمة . ثم يسير « روسو » قدما محرضا على الثورة ضد الملك الذي فرضه كروتيوس على رأس المجتمع فيستطرد مدافعا عن الحرية ويقول :

« ان التنازل عن الحرية معناه التنازل عن صفة الرجولة والتخلي عن جميع الحقوق الانسانية وما يترتب عليها من مقتضيات وواجبات . ومثل هذا التنازل عن كل شيء ، لا يمكن ان يعوض عنه بشيء مهما نفس وغلا ، بالاضافة الى كونه مغايرا ومنافيا لطبيعة الانسان . فنقل حرية الانسان كلها الى يد فرد اخر يعني القيام بعمل خال تماما من جميع مزايا الحكمة ،

وبعيد كل البعد عن قواعد الادب والاخلاق • وعلى ذلك ، فان مثل هـذا الاتفاق ، هو اتفاق فارغ وغير مألوف وينكر نفسه ، ترى فيه أحد الجانبين قائما وبيده مطلق السلطة المطلقة ، بينما ترى الجانب الاخر وليس لـه سوى مطلق الاستكانة والانقياد والخضوع » •

وعلى هذا الاساس من المنطق ، يبادر « روسو » الى انتزاع السلطة من يد الملك قسرا وبالقوة فيقول : « أو ليس من الجلي الواضح بعد هذا ، أننا الان في غير ما ارتباط والتزام أو عهد مع فرد ظالم ، لنا الحق ، كل الحق ، في استرجاع ما استلبه منا واغتصبه ، استرجاعه عنوة وبالقوة ؟ » •••• « ان مثل مدعي حق استعبادك مثل مجنون جاء يعرض عليك اتفاقية مشروع ! بقوله : وستتحمل أنت كافة تكاليف المشروع ، أما الفوائد ، فستكون جميعها من حصتي • وسأستمر ملزما بهذا الاتفاق ، مادمت أنا راغبا بدوامه • وستكون ملزما أنت بالمحافظة عليه ، ما دمت أنا راغبا بدوامه أيضا • ـ وكذلك حال اتفاق الرعية على العبودية مع الظالمين الطغاة ، تستمر بدوام الجنون ، وتتمكن بسكوت الجبناء الارقاء » •

أما « ديدرو » والجماعة الانسكلوپيـديون الذين اشـتركوا معـه في تحرير فصول « دائرة المعارف » ، فكانت وجهتهـم مهاجمـة التعصب الديني ، وتحرير الفرد من القيود الفكرية والسياسية ، ومكافحة تجـارة الرقيق ، ومقاومة عدم المساواة في الضرائب • وكانوا قد دأبوا على توجيه

العقول وجهة علمية بحتة ودعوا الى تقبل العلوم الطبيعية والاعتماد على العقل وحده .

وكان « ديدرو » قد جمع في دائرة المعارف جميع الآراء المناهضة للكنيسة ، كما عرض فيها الحركات التي قام بها أعداء الدين عرضا شاملا . وكان يرى انه يجب افهام الناس بأن الدنيا مكان جدير بالاصلاح وتوقع الخير والسعادة فيها ، وان فيها كذلك شرورا ، ولكنها شرور لا تعود الى نقص في الطبيعة الانسانية ، وانما تعود الى فساد النظم الاجتماعية وأساليب التربية والتعليم .

وفي كتابه « اعترافات راهبة » ، هتك القناع عما كان يجري في الاديرة من مساوىء يذهب ضحيتها أبناء الشعب دونما مبرر ، وكيف ان تلك الاديرة كانت سجونا للحريات بعد ان كان المفروض فيها ان تكون بيوتا للعبادة . ولقد كان لهذا الكتاب تأثير عظيم على الرأي العام الفرنسي في حينه ، كما أثر الى درجة عظيمة على تصرفات قادة الثورة الفرنسية الذين صوبوا نيران الثورة ، بعد ان فرغوا من سحق الملكية ، الى السلطة الكهنوتية ففصلوا الكنيسة عن الدولة واستردوا من رجال الاكليروس جميع المرتبات التي كانت الدولة قد دفعتها اليهم الى ذلك الحين ، كما سحبوا رجال الدين من المدارس الاولية ، ووضعوا تدريس « حقوق الانسان » ومواد الدستور الفرنسي بدلا من تلك الدراسة الدينية الكهنوتية .

وعندما انتصرت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ، كانت « وثيقة حقوق الانسان والمواطن » التي أعلنتها الثـورة تتضمن بعض المواد التي تتعلـق بحريات الناس ، وتلك هي :

المادة (١) ـ ان الناس جميعا يولدون أحرارا ويعيشـون أحـرارا متساوين في الحقوق ، ولا يميز بينهم اجتماعيا الا على اساس النفع العام •

المادة (٢) ـ ان غاية كل هيئة سياسية هي صيانة حقـوق الانسان الطبيعية الثابتة ، وهي : الحرية ، والتملك ، والامن ، ومقاومة الظلم •

المادة (٤) ـ تقوم الحرية على حق المواطن في ان يمارس كل عمـل لا يضر بالاخرين • ولذلك فان ممارسة الحقوق الطبيعيـة من قبـل أي شخص كان لا تقف الا عند الحد الذي يؤمن لبقية اعضاء المجتمع التمتع بهذه الحقوق نفسها • وهذا الحد لا يعينه الا القانون •

المادة (١٠) ـ لا يجوز ازعاج أي شخص بسبب آرائه ، وبضمنها معتقداته الدينية ، بشرط أن لا تكون المجاهرة بها مسببة للاخلال بالنظام العام المحدد بالقانون •

وقبل مغادرة المسرح الفكري للثورة الفرنسية ، لابد من الاشارة هنا الى بعض ما لاقاه أحرار الفكر خلال الثورة ، ونقصـد بذلـك « توماس پين » •••

لقد حكمت احدى المحاكم الانكليزية على « پين » بالاعـدام بسبب

كتابه « حقوق الانسان » • وكان عندما صدر الامر بالقاء القبض عليه ، قد فر هاربا الى فرنسا حيث استقبله الفرنسيون في « كاليه » بالعناق أيام الثورة الفرنسية • غير انه عندما اختلف مع روبسبير في الرأي ، فان هذا الاخير بدأ يضطهده ثم القى به في غيابة السجن منكرا فضله على الثورة الفرنسية التي خدمها بكل طاقته الفكرية •

على ان « پين » لم يمض وقته في السجن عبثا ، انما شرع بتأليف كتابه الذي أقام السلطات الانكليزية وأقعدها ألا وهو « عصر العقل » الذي هاجم فيه الانكليز بضراوة كما هاجم المسيحية ايضا • ولقد حكم على ناشر الكتاب في انكلترا بالسجن لمدة عام • غير انه عندما نشر « ايتن » الجزء الثالث من هذا الكتاب عام ١٨١١م ،فقدحكم عليه بالسجن لمدة ثمانية عشر شهرا وبأن يربط الى « وتد التشهير » مرة في كل شهر • وكان اللورد « النبورو » هو الذي صاغ حيثيات ذلك الحكم حيث قال :

« انهلم يكن مباحا يوما من الايام أن ينكر انسان حقائق الكتاب الذي قامت عليه عقيدتنا » •

فما كان من شاعر بريطانيا « شلي » الا ان وجه رسالة الى اللورد « النبورو » قال فيها :

« أفتظنون انكم تحاولون هداية مستر « ايتون » الى دينكم بتكدير عيشه وتعذيبه ؟ انكم قد تستطيعون أن تجبروه بالقهر والتنكيل على أن

يعترف بمعتقداكم ، ولكنه لن يستطيع تصديقها الا اذا حاولتم أنتم أن تجعلوها قابلة للتصديق ، وذلك شيء ربما كان أبعد من طاقتكم . أفتظنون انكم ترضون الله الذي تعبدونه باستعراض هذه الغيرة التي تبدونها ؟ ... »

ـ كل ذلك كان ذيولا لحادث سجن « بين » من قبل روبسبير أيام الثورة .

ويرى مؤرخو الفكر السياسي : بأن الثورة الفرنسية لم تكن اكثر من فاتحة لعهد جديد . فلم تكن الثورة الا حركة قامت بها الطبقة البورجوازية ، فأسس كيان فرنسا ومن حذا حذوها من الدول ، على اسس بورجوازية ، ولم يكن بين أقطاب الثورة من نادى بالاشتراكية الا « بابوف » الذي حرر منهاجا شاملا لطريقة الاصلاح السياسي والاقتصادي التي ارتآها . غير ان منهجه لم يحظ بالقبول آنذاك ففشل . لكن تأكيد الثورة على مبدأ المساواة ، كان أقوى دافع لبث النزعة الاشتراكية وتقويتها . ولقد وصل أثر ذلك الى الطبقات الفقيرة فرجها وخلق فيها وعيا ، وكان من نتائجه ظهور الحركات الاشتراكية على اختلاف اشكالها ونزعاتها في القرنين التاسع عشر والعشرين .

وقبل تسليط بعض الضوء على مسرح الفكر الالماني ، أرى من الضروري العبور مع القاريء الى جهة الاطلسي الاخرى حيث قامت الثورة الاميركية .

كانت أميركا قبل استقلالها قد أصبحت ملجأ لطلاب الحرية من

الاوربيين الذين كانوا يعانون الاضطهاد الفكري والسياسي والديني في بلدانهم ، فهاجر اليها الكثير من البيوريتان الانكليز والهوجنوت الفرنسيين وغيرهم من الناس الذين كانوا قد ضاقوا ذرعا بالمجتمع الاوربي فراحوا يمنون النفس بانشاء حكومات ديموقراطية في أميركا يستطيع الانسان ان يعيش في ظلها بحرية .

وكانت آراء « جون لوك » بصورة خاصة ، ثم آراء فولتير وروسو ومونتسكيو وديدرو قد انتشرت انتشارا واسعا بين اولئك المستوطنين الجدد الذين حملوها معهم من أوربا ليغرسوها على الارض الاميركية البكر . وكانت كتابات « توماس پين » من اكبر العوامل التي أشعلت نار الثورة ضد المستعمرين الانكليز هناك ، كما كان « پين » نفسه أحد رواد الثورة الكبار الذين ساهموا فيها مساهمة فعلية . ولقد كتب يوما على جلد طبل أمام معسكر الجنرال جورج واشنطن عبارته المشهورة : « من شرارة صغيرة أضاءت في أميركا ، اندلع لهيب لن يخمد أبدا » . كذلك فانه كان يردد قوله المعروف : « حيثما انعدمت الحرية ، فان وطني هناك » ، يعني انه سيتطوع في صفوف الثورات المطالبة بالحرية في البلدان التي يسودها الظلم والاضطهاد . أما « بنيامين فرانكلين » فقد كان يختلف عن « پين » ويقول : « حيثما تكون الحرية ، فان هناك وطني » .

وكانت النظرية التي أسست عليها وثائق حقوق الانسان في أميركا

هي الاعتقاد بحقوق الفرد • ولقد قسموا تلك الحقوق الى نوعين : (١) الحقوق التي يمكن للفرد أن يتنازل عنها للمجتمع لقاء توفر النظام والاستقرار والامان ، و (٢) الحقوق التي لا يمكن للفرد ان يتنازل عنها للحكومة ، كما لا يمكن للحكومة أن تعتدي عليها أو تغتصبها • وهذه نفس آراء « جون لوك » التي شرحها في الجزء الثاني من كتابه المسمى « رسالة في الحكومة المدنية » الذي وضعه عام ١٦٩٠ م دفاعا عن مبادىء ثورة ١٦٨٨ في انكلترا • ولقد جاء في ديباجة وثيقة اعلان الاستقلال التي حررها « توماس جفرسون » :

« اننا نرى أن الحقائق التالية هي من البديهيات ، وهي : ان جميع الناس خلقوا متساوين • وان الخالق قد شملهم بحقوق معينة لا تنتزع • ومن هذه الحقوق : الحياة ، والحرية ، والسعي لبلوغ السعادة • والحكومات انما تنشأ بين الناس لضمان هذه الحقوق •• الخ » •

ولقد وصف « دانيال ويبستر » طابع الحرية في المجتمع الاميركى في السنين الاولى من عمر الجمهورية الاميركية وذلك فى خطاب تأبينى لآدمز وجفرسون حيث قال : « وفي أميركا ، بدأت مرحلة جديدة من مراحل الشؤون الانسانية • وتتميز هذه المرحلة بالحكومة النيابية الحرة ، والحرية الدينية المطلقة ، والروحية الجديدة التى تنشد الاطلاع والاستقصاء ، ثم بحرية الاغتراف من العلم والمعرفة لجميع أعضاء الهيئة الاجتماعية ، وهو ما لم نكن

نعهده من قبل ..

وفي القرن التاسع عشر ، حدثت في أميركا معركة كبيرة من معارك الحرية وذلك بنشوب الحرب الاهلية عام ١٨٦١ . كان « ابراهام لنكولن » وأتباعه في الولايات المتحدة الشمالية يدافعون عن الزنوج ويرمون الى تحريرهم من رق العبودية التى كانوا يرسفون بأغلالها ، بينما كان سكان الولايات الجنوبية متمسكين بما يسمونه حق الاسترقاق ، وعدم تطبيق مبدأ المساواة الديموقراطية على الزنوج . وكانت نتيجة تلك الحرب أن انتصر الشماليون ، فأعلن قانون الغاء الرق وتحرير الزنوج ، فمنح هؤلاء نظريا نفس الحقوق التى يتمتع بها غيرهم . ولقد قال «لنكولن» في خطابه الذى افتتح به حملته الانتخابية عام ١٨٥٨ :

« ان بيتا منقسما على نفسه لا يستطيع البقاء . واننى أعتقد ان هذه الدولة لن يكتب لها بقاء واستمرار ما دام نصفها أرقاء ونصفها أحرارا ..

وكان من المفكرين الاميركيين ممن كتب في الحرية « جون ديوي » و « هنرى جورج » ... لقد رأى « ديوي » أن الفرد يجب أن يكون حرا ، ولكن تلك الحرية يجب أن تكون منسجمة مع مصلحة المجموع ؛ وان الفرد، بصفته عضوا في المجتمع ، فهو مندمج في جماعته بصورة يجب عليه معها أن يؤدي الى المجتمع كل ما يسبب للمجتمع سعادته ، كما انه من حقه أن يحظى من المجموع بكل ما يساعده لان يظهر بكامل شخصيته الانسانية .

فالحرية الكاملة المطلقة فى نظره ، تؤدى الى فردية لا تقيدها حدود المثل الأخلاقية وهو ما يؤدى الى الاستبداد ، والى أن تطغى شخصية فرد على شخصيات الآخرين ، ونتيجتها الفوضى حتما .

وان احترام الشخصية الانسانية هو محور فلسفة « ديوي » وعماد منهجه الفكرى . انه اعتقد بأن الشخصية البشرية يجب ان تحترم وتقدس ، وان كل فرد ، مهما كانت وظيفته فى المجتمع ، يجب أن تكون له أهميته وحرمته ، فلا يستعمل كآلة أو يستغل ويوجه الى هدف ليس فيه مصلحته . وان هذا المبدأ لا يمكن تحقيقه ، كما يرى ، ما لم يمح التفاوت بين الطبقات التى أوجدها عدم التوازن الاقتصادى .

أما هنرى جورج ، فقد اجتازت فلسفته أميركا الى بريطانيا وظهرت آثارها واضحة على فلسفة « الجمعية الفابية » التى أصبحت فيما بعد الدماغ المفكر لحزب العمال الاشتراكى البريطانى الحالى . ولقد تكلم عن المجتمع والعبودية فقال : « ان النظام الاجتماعى الحالى الذى يخول البعض حق الملكية الخاصة للارض ويحرم الآخرين منها ، انما هو انكار للعدالة ومسخ لها . فأن سمحنا لشخص باستملاك أرض هى مصدر القوت والحياة لغيره من الناس ، جعلنا هؤلاء ، ضمنا ، مستعبدين لمشيئته وأهوائه ونزواته ... وتشتد تلك العبودية بازدياد التقدم المادى فى وسائل الانتاج . » . وقال أيضا:

« انه لا يكفى للانسان أن يحوز حق التصويت ، أو أن يتمتع نظريا

بالمساواة أمام القانون • بل يجب أن تكون له الحرية الكاملة لان يتمتع بكل فرص الحياة فيما يتعلق بخيرات الطبيعة بحكم المساواة مع أى فرد آخر •• فأما أن يتحقق هذا ، أو تسحب الحرية نورهـا من الوجود فيعم الظلام ، وتنقلب كافة القوى التى ظهرت نتيجـة للتقدم الى عوامل هلاك وتدمير • ، وكان مما قاله بهذا الصدد أيضا :

« اذا ما زال شبح الفقر الرهيب ، وتحول الطمع والجشع الى عواطف خير وصلاح ، وأخذت الاخوة تسود وتحل محل الحسد والغدر والخيانة ، وانطلقت القوى الفكرية ، بعد تحريرها من أغلال العوز والفاقة ، الى فضاء النشاط والعمل المثمر ، عندذاك تصل البشرية الى عهدها الذى تزدهر فيه المدنية » •

فاذا ألقينـا الآن نظرة عـابرة الى الخلـف ، رأينـا قـارعى طبـول الحريات يتقدمون مواكب الاحرار وهم يزحفون مع سنى القرن التاسع عشر في أوربا التى راحت ترتفع فيها رايات الحرية هنا وهناك •

وكان الكفاح من أجل الحرية فى هذا العصر الذى جـاء فى أعقـاب الثورة الفرنسية ، قد اتخـذ له فى أوربـا شكلين عقـائديين فى ميـدانين مختلفين : الميدان الدينى الكنائسى ، والميدان السياسى أيضا ، كما كانت عليه الحال فى القرن الذى سبق •

ففى الميدان الاول ، أصبحت الكنيسة فى وضع المدافع ، بل المتراجع أمام زحف قوى الحرية الفكرية بعد أن شهدناها فى وضع المهـاجم دائما

وأبدا خلال الالف سنة ، التى استغرقت القرون الوسطى ، ثم القرون التى استغرقها عصر النهضة حتى الثورة الفرنسية ، على الرغم مما كان يبدر من بعض أحرار الفكر في تلك القرون بين آونة وأخرى من هجمات .

ولقد شهد القارىء بعض صور هجمات هؤلاء الاحرار أمثال فولتير وغير فولتير . ولأجل أن يكون الموقف على درجة من التناسق والوضوح في القرن التاسع عشر ، نرى لزاما علينا وصل الموضوع جملة في سلسلة متتابعة الاحداث .

وأما فى الميدان السياسى ، فقد تبلورت الفكرة الديموقراطية وتحولت الى ديموقراطية اشتراكية بعد الثورة الفرنسية ، فى ذات الوقت الذى ظهرت فيه بعض المذاهب الراديكالية ، كالماركسية ، التى راحت تعمل المستحيل فى سبيل القضاء على الديموقراطيات فلم تفلح فى مسعاها ، وهو ما أدى ايضا الى ازمة الحرية القائمة اليوم فى القرن العشرين الذى لم يزل مسرحا لما تقوم به الشيوعية من محاولات .

وكانت معركة الحرية تسير جنبا الى جنب فى كلا الميدانين . غير ان القرن التاسع عشر كان يمثل المرحلة الاخيرة بالنسبة لانتصار الحرية على الكنيسة فى الوقت الذى شهدت فيه الحرية خصوما جددا فى الميدان السياسى فكان هذا القرن ، رغم النصر الكاسح الذى حققته الحرية فى كثير من وجوه الحياة ، لا يمثل المرحلة السياسية الاخيرة الحاسمة بحال .

معركة المصير

الواقع ان النصر المؤزر الذى سجلته الحرية على سلطان الكنيسة فى القرن التاسع عشر لم يكن نتيجة معارك آنية خاضها الفكر على صعيد النقد والمنطق والعلم وحسب ، انما كان حصيلة كفاح جبار خاضه الفكر الأنسانى عبر قرون طويلة فى أوربا ، مما لم يشهد له تاريخ العالم مثيلا • وقصة هذا الكفاح أطول مما يتصوره القارىء • لكننا سنوجز ذلك فنقتصر الحديث على المحور الذى دار حوله ذلك الصراع •

فلقد شعر أحرار الفكر منذ البدء أن الكنيسة قد استعبدت تلك الشعوب الاوربية الضخمة عن طريق استغلال الكتاب المقدس • لذلك كان من الامور المنطقية أن يسعى هؤلاء الاحرار الى تجريد الكنيسة قبل كل شىء من هذا

السلاح . وكان بعض خصوم الكنيسة قد نجح خلال كفاح طويل فى نقل سلطة الكنيسة والكتاب المقدس من يد روما الى يد الحاكم الدنيوى المطلق ، كما حدث فى ألمانيا مثلا ، غير ان ذلك قد بدا بالنسبة للفكر الانسانى حلا غير صالح من حيث ان الاضطهاد عاد ثانية ليقع على رأس مخالفى هذا الحاكم فى المذهب والرأى ، فلم يكن هناك بد لقوافل أحرار الفكر المتلاحقة من النفوذ الى صميم نصوص الكتاب المقدس ليعرضها كل حسب وجهة نظره واجتهاده على عامة الناس الذين كانوا مهددين بسوء العذاب والموت لو انهم فكروا فى مناقشة بعض ما يحتويه ذلك الكتاب . انهم استهدفوا تنبيه أذهان ابناء تلك الشعوب بعد أن أصمت الكنيسة ورجالها الآذان عن تقبل كل رجاء أو نداء . وكان الكفاح من أجل الحرية الفكرية قد بدأ يظهر واسعا وواضحا عندما اتخذ أحرار الفكر فى اوربا من فلسفة المفكر الاسلامى ابن رشد ، منطلقا وقاعدة لذلك الكفاح . وكانت نظرية ابن رشد فى « الحق المزدوج » تقول بأن فى الوجود حقيقتين : حقيقة دينية ، وحقيقة فلسفية . وقد راح مفكرو أوربا الذين آمنوا بهذه الفلسفة ينبهون أفكار الناس الى ان بعض القصص والنصوص الواردة فى الكتاب المقدس انما هى صحيحة من الناحية الدينية ، وباطلة من الناحية العقلية .. وهكذا بدأ أحرار الفكر هجومهم ضد الكنيسة من وراء ستار . لقد كانت سلطة الكنيسة ذات بطش مخيف لا يستطيع معه هؤلاء دخول ميدان المعركة دون مجاملة او

التوآت .

وكانت الكنيسة تمانع فى نشر الكتاب المقدس وطبعه واطلاع عامة أبناء الشعوب عليه خوف انكشاف فظائعها واعتدائها وارهابها الذى ما أنزل الله به من سلطان . وهى عندما راحت تبيع الناس أراضى وقصورا فى الجنة بسندات مقابل ثمن ، ثارت ثائرة بعض الرهبان ، ومنهم مارتن لوثر ، فبادروا الى طبع الكتاب المقدس وجعله فى متناول أيدى الناس تشهيرا منهم بالكنيسة الرومانية . وكان لوثر قد علق وثيقة احتجاج على باب محكمة الكنيسة تحتوى على خمس وتسعين مادة اتهام للكنيسة ، وهو ما أدى بالبابا الى أن يصدر عليه أمره بالحرمان ، ففر الى ألمانيا حيث التف حوله الكثير من أساتذة الجامعات وطلابها الذين أصبحوا له بمثابة الدرع الواقى من شرور صنائع البابا من الحكام المدنيين . وهكذا اعتكف لوثر فى احدى قلاع سكسونيا وراح يترجم الكتاب المقدس من اللاتينية الى مختلف اللغات الاوربية الى ان توفى عام ١٥٤٩ .

وكان انتشار الكتاب المقدس وتداوله بالبحث والدراسة والنقد من قبل الناس قد أدى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الى ظهور طبقة من المفكرين ممن أنكروا أن يكون ما يحتويه الكتاب المقدس شيئا منزلا كوحى من الله ، لكنهم فى الوقت ذاته لم ينكروا وجود الله سبحانه وقد عرف هؤلاء بـ « المؤلهين » .

ففى انكلترا ، كان على رأس القائمة بين المؤلهين جون لوك الذى لم يرفض المسيحية كدين ، انما دعا الى اخضاع تفاصيلها كعقيدة الى سلطان العقل ، ورفض أن يكون ما لا يتقبله العقل والمنطق منها ، شيئا منزلا من عندالله • انه يرفض مثلا ، الايمان بأن يكون الله قد أقر تهمة « تحالف العجائز مع ابليس » اللعين فى سبيل الكيد للناس أو اثارة العواصف والزوابع وتسليط الاوبئة والامراض عليهم ، كى يجوز للمحاكم الدينية استعباد الناس لدرجة حرق نسائهم وهن أحياء أو قتلهن بفظاعة وذلك باجلاسهن على الخوازيق • وكنا قد شهدنا كيف عمل الملك جيمس الاول بحماس دينى مخيف ، وكذلك البيوريتان لاستئصال شأفة النساء الساحرات تنفيذا لنص الانجيل القائل : « لا تتركوا ساحرة على قيد الحياة » • لكن انكلترا قد ثابت أخيرا الى رشدها بتغلب العقل فكانت آخر بائسة أقام عليها القساوسة الدعوى بتهمة ممارسة السحر هى « جين وينهام » • وكان تعقل القاضى الانكليزى الذى نظر في تلك الدعوى قد أدى به ، رغم ادانة المحلفين لجين ، الى تأجيل النطق بالحكم لمدة طويلة ، بعدها أفرج عنها عام ١٧٣٥ عندما ألغيت قوانين مكافحة السحر الانكليزية فنجت بذلك من الموت حرقا بالنار •

ومن المؤلهين من هاجم الكنيسة عن طريق الغموض الذى كان القساوسة يحيطون به آيات الكتاس المقدس ، كوسيلة لتأويله وفقا لرغباتهم الرامية الى التحكم بحريات الناس • ومن هؤلاء ، الكاتب الايرلندى «تولاند»

الذى تجاوب كثيرا مع «لوك» وقال ان المسيحية ليست صوفية غامضة ، وان الدين الصحيح يجب ان يكون بعيدا عن الخفايا ، وان الاله العاقل انما هو الذى يتخذ من الوحى وسيلة لانارة الطريق أمام بنى البشر ، لا ليوقعهم بواسطته فى متاهات الحيرة والمبهمات .

اما «مائيو تندال» فيشك فى أنه كان يعترف بالمسيحية جملة وتفصيلا رغم ايمانه بوجود اله مدبر للطبيعة والكون . انه هاجم تأويل نصوص الكتاب المقدس ومحاولات القساوسة لايراد معانى ومدلولات بعيدة عن المعنى الحرفى لكلمات الكتاب ، وهو يقارن تلك الحال بالوضوح الذى عليه آيات القرآن لدى المسلمين فيقول « اننا لا نظن أن يكون المسلم من أتباع القرآن لو أنه اضطر الى أن يخرج به دائما وأبدا عن معناه الحرفى » . ثم نراه يهاجم الكنيسة عن طريق اشارته الى ما يراه من الاخطاء التاريخية والجغرافية الموجودة فى الكتاب المقدس ، ثم يتناول فكرة الخلاص وبعض القصص المقدسة بالنقد المر .

ومن هؤلاء المؤلهين من اتجه فى صراعه مع سلطان الكنيسة وجهة نقد النبوءات والمعجزات التى وردت فى الانجيل ؛ منهم أنطوني كولنز الذى نشر عام ١٧٣٣ مقالة « فى اصول المسيحية واسبابها » ، ومنهم « توماس وولستن » ، أحد طلبة جامعة كيمبرج الذى نشر سلسلة مقالات حول تلك المعجزات حوالى سنة ١٧٣٠ ، وهو ما ادى الى طرده من الجامعة ، ثم حوكم

وسجن ومات فى السجن • وكان من المؤلهين البارزين فى ذلك العصر أيضا اللورد شافتنربرى وكونيرز مدلتون ، وكانت هجماتهم على الكنيسة لم تخرج عن المجالات الآنفة الذكر بحال •

وكان من أعلام الفكر الذين وقفوا فى وجه الكنيسة فى ذلك العصر ، « فولتير » بأسلوبه الساخر ، و «ديدرو» بأسلوبه العلمى والقصصى ، وقد أشرنا الى شىء من آرائهما في غير هذا الفصل • أما «روسو» ، فقد كان مؤلها عاطفيا ينظر الى المسيحية بعين الشك والاحترام • وكان قساوسة تلك الايام يكرهون آراءه فيها أكثر بكثير من كرههم لآراء فولتير الساخرة • وفى عام ١٧٦٢ ، نشر روسو كتابه « أميل » ، وهو من الكتب التربوية • غير أنه فى الصفحات المتعلقة باعترافات قسيس ايطالى ، أنكر اللاهوت والوحي المسيحى فكان أن جمع الكتاب وأحرق فى باريس ، ثم صدرت الاوامر باعتقاله فهرب ملتجئا الى « نيف شاتل » التى كانت تابعة لبروسيا حيث منحه فردريك الاكبر ـ وكان ملكا متسامحا ـ الملجأ والامان •

وكان لكتابات فولتير وديدرو وروسو الفضل الكبير فى الاصلاحات التى تناولت الكنيسة من شتى وجوه الحياة فى القرن التاسع عشر • وفى ذلك يقول اللورد « مورلي » بأن الكنائس المسيحية راحت تهضم الافكار الخلقية السمحة وتتغذى بالروحانية السامية التى سبق أن دعا اليها مفكرون نبذتهم فى حينه جميع الكنائس ووجهت ضدهم هجمات منسقة على اعتبار انهم

اعداء للبشرية •

وكان توماس بين من أبرز المؤلهين الذين اختتم بهم القرن الثامن عشر وقد هاجم الوحى المسيحى وقصص الكتاب المقدس هجوما لا هوادة فيه ، وكان يقول بأن الذى يتأمل ويتفكر فى عظمة الرب الذى خلق هذا الكون والوجود الذى لا تدركه العقول ليستغرب كل الاستغراب فى ان تكون القصص التى جاء بها الكتاب المقدس من كلام الله •

وكانت فلسفة هؤلاء المؤلهين بصورة عامة عند اثباتهم وجود الله ونفيهم للقصص والوحى المسيحى تنحصر في نظرية « الاستدلال بالتدبير » ، وهى نظرية تقرر أن وجود الشىء دليل على وجود صانعه • فالكرسى مثلا ، دليل على وجود النجار ، والبيت دليل على وجود البناء ، وان وجود هذا الكون بالاحرى ، ان يكون دليلا قاطعا على وجود الله المقتدر العظيم • وكان « هيوم » من الفلاسفة الذين تناولوا هذه النظرية بالنقد ، وذلك فى كتابه « محاورات فى الدين الطبيعى » الذى نشر بعد وفاته عام ١٧٧٦ • أما « كانت » فقد كان نقده لنظرية الاستدلال بالتدبير فى كتابه « نقد العقل المجرد » أوسع مدى وأكثر شمولا • ومع ذلك فان فلسفة « كانت » الاخلاقية قد اعترفت بالالوهية ، أو أن « كانت » بعبارة أوضح ، كان قد أدخل فكرة الله الى فلسفته من بابها الخلفى بعد أن حال دون دخولها اليها من بابها الامامى •

وكانت هذه الهجمات الجريئة التى قام بها هؤلاء المفكرون قد اشعرت

شعوب أوربا ونبهتها الى عدم وجود حق للكنيسة فى استعباد النـاس • ثم انها من جهة أخرى ، كانت تدفع الكنيسة ذاتهـا بواسطـة الديناميـة التى انطوت عليها آراء هؤلاء المفكرين ، الى الاعتراف أمام الناس بأن « ما لله لله وما لقيصر لقيصر » • لكن الكنيسة رغم ما اعترى موقفها من ضعف وهزال ، بقيت تتشبث بحقها المزعوم فى استعباد شعوب الارض الى ان وجدت نفسها محاصرة خلال القرن التاسع عشر من قبل ثلاثة أعداء أقوياء : العلم والفلسفة والسياسة •

وكان موقف الكنيسة الاستبدادى من الشعوب طوال القـرون الطويلة قد أدى الى وجود تراكمات ضخمة من المتفجرات الفكرية لدى الكثير من مفكرى القرن التاسع عشر مما كان يشير الى احتمال حدوث انفجارات مخيفة قد تتناول المسيحية كدين ، وهو ما يؤدى فعلا الى الالحاد الحقيقى • وكان القرن التاسع عشر كما نعلم يمثل عصر ثورة علمية واسعة وعصر مكتشفات • ولقد استغل الناقمون تلك الكشوف العلمية فراحوا يروجون للالحاد انتقاما من الكنيسة التى أذاقتهم صنوف الذل عبر القرون ، فكان أن استغلت النظرية السديمية التى جاء بها « لابلاس » فى خلق الكون فى مطلع القرن التاسع عشر أسوأ استغلال • كذلك استغل الناقمون المكتشفات الجيولوجية لغرض زعزعة ثقة الشعوب آنذاك بعصمة الكتاب المقدس • وكانت حصيلة ذلك كله بعـد انقضاء فترة من القـرن التاسع عشر أن أصبح الرأى العـام الأوربى

متسامحا الى درجة كبيرة مع المفكرين والعلماء ، ولم يعد فى استطاعة الكنيسة وقساوستها اثارة الغوغاء والعامة الجهلاء عليهم باسم الدين • لكن الضربة القوية التى وجهت الى سلطان الكنيسة واللاهوت المسيحى قد تمثلت فى كتاب دارون « اصل الانواع » الذى نشر عام ١٨٥٩ • وعلى الرغم من ان الكثير من مثقفى اوربا ومن بينهم علماء فى البيولوجى مثل « هايكل » لم يتجاوبوا مع النتائج التى ترتبت على نظرية « الانتخاب الطبيعى » ، فان جواب الكنيسة آنذاك كان رجعيا موغلا فى رجعيته اذ لم تحاول الكنيسة الاستفادة من موقف هؤلاء المثقفين العلماء المؤلهين من المسألة فأصدر البابا عام ١٨٦٤ منشورا احتوى قائمة بأخطاء ذلك العصر الرئيسية التى قال بأن منها : (١) منح الحرية للانسان فى أن يعتنق المذهب الذى يراه صحيحا على ضوء تفكيره العقلى • (٢) الاحتجاج على استخدام الكنيسة للقوة فى ممارسة سلطاتها • (٣) دراسة الفلسفة الميتافيزيقية وعدم الرجوع للكنيسة والقصص المقدس كمراجع للحقائق • (٤) سماح الدول الكاثوليكية للمهاجرين الاجانب الوافدين اليها بممارسة شعائرهم الدينية علنا • (٥) دعوة الناس للبابا لمهادنة مبادىء الحرية والحضارة الجديدة •

ولم يكن من صالح الكنيسة ـ لودرت ـ أن يصدر البابا مثل هذا المنشور الذى لا تلمس فيه غير الاعتداء الصارخ على الحريات • ذلك ان العصر كان عصر وعي سياسي وعلمي حقق فيه الانسان للفرد والجماعة قسطا هائلا

من الحريات التى لم يعد بمستطاعه التخلى لاحد عنها ، ملكا كان أو پاپا أو غير ذلك ، فلقد أصبح الاوربيون فى تلك الايام يشعرون بمدى العداوة التى تضمرها الكنيسة لآمال الشعوب فى الحرية ، وهو ما جعلهم يشيحون عن الاعتراف بها كمؤسسة لها سلطة دنيوية على أحد من الناس ، فكان ذلك المنشور الپاپوى هو نفسه قد جرد الكنيسة من أقوى اسلحتها الى الابد • وعندما نشر مجلس الفاتيكان قراره الذى قال فيه ان البابا « معصوم من الخطأ » ، اهتزت أركان اوربا بالضحك عليه عام ١٨٧٠ ، ثم ظهر على اثره اتجاه مسيحى جديد لا يفرض على المرء الالتزام بالمبادىء المسيحية القديمة المتوارثة ، وقد بدأ ذلك واضحا بعد أن نشر دارون كتابه الجديد « هبوط الانسان » عام ١٨٧١ • ولقد بقى هذا الاتجاه المتحرر فى تطور مستمر بالنظر لما لقيه من قبول لدى الافراد والمجتمعات الاوربية الباحثة عن حرياتها فى كل زاوية من زوايا الحياة ، الى ان أصبح على شكل هذه المسيحية الحرة الجليلة المقاصد والاهداف التى يعيشها مسيحيو القرن العشرين بعد ان انحسر الى الأبد ظل المزاعم الكهنوتية فى حق الكنيسة وقساوستها باستعباد الانسان والمجتمع •

لقد فشلت الدارونية فى ازاحة المسيحية كدين من الميدان • وهى وان استغلت الاستغلال كله من قبل أعداء الدين بصورة عامة في عصر اشرفت فيه المعركة بين الحرية وسلطان الكنيسة الكهنوتى على نهايتها ، فانها عجزت عجزا

مطلقا عن تثبيت الالحاد كدين يحل محل الدين المسيحى • ذلك انه كان هناك فى المجتمع الاوربى من كبار علماء الدنيا المعنيين بنظريـة التطور من رفض أن تحل هذه النظرية محل الجزء المعنوى من الوجود بعد ان استحوذت على تفسير جزئه الحياتى المادى • فـ « هايكل » الاستاذ فى جامعة « ينا » وعالم الحيوان الذى يسمى « نبى التطور » كان على رأس هؤلاء العلمـاء المؤمنين بالدين وبالله • ولقد وضع هايكل كتابه « خلق الانسان » عام ١٨٦٨ فترجم الى اكثر من عشر لغات • لكن خصومه وعلى رأسهم رجال الكهنوت المسيحى راحوا يتهمونه ظلما بالمادية لاعتقاده بأن الظواهر الطبيعية الجارية فى الكون تخضع لحقائق يمكن أن يدركها العقل الانسانى ، وهو ما يخالف تعاليمهم التى كانت دائما ترمى الى وجوب تسليم الانسان بالغيبيات ، واخضاع العقل الانسانى دونما جدل أو تفكير للتفسيرات اللامنطقية التى كان يأتى بها هؤلاء اللاهوتيون للخسوف والكسوف والزوابع والاوبئـة والنمو والتطور وغيرها • ولقد أيدت الفتوحات العلمية التى نشهدها اليوم نحن ابنـاء القرن العشرين جميع ما ذهب اليه هايكل فى رأيه حول الظواهر الطبيعيـة ، لكن روعة هايكل ، وهو عالم الحيوان العظيم ، كانت فى سحقه للداروينية كنظرية الحادية ترمى الى ازالة فكرة «وجود الله» من أذهان الناس • لقد اعتقـد هايكل ، بعد جهوده العلمية المضنية الطويلة ، وآمن بـ «المعنى» الكونى واعتبر الجسم والفكر وجهين غير منفصلين « للحقيقة العليا المطلقة » التى قال بأنهـا

« الله » • لقد ارتفع هايكل بالمسيحية الى مدارج الرفعة بعد أن جردها من قصص اللاهوت الكهنوتى المدسوس عليها عبر الاحقاب والقرون • فاذا جاز لنا أن نبدى رأينا فى موقف هايكل ورأيه فى « الحقيقة المطلقة » ، فانا نراه وقد اتجه بالمسيحية الى نوع من الصوفية السامية التى تقترب كثيرا من صوفية المسلمين •

لقد كانت «الهايكلية» سلاحا بيد الاحرار المؤمنين بالله والدين والحرية فى صراعهم مع سلطات الكنيسة الظالمة • أما الداروينية ، فقد أصبحت بعد انهيار سلطان القساوسة اداة فعالة فى محاربة الحريات والاحرار ، خاصة عندما أدخلها كارل ماركس فى حسابه كسلاح يمكن للمجتمع الذى يقوم على اساس من فلسفته أن يسحق به حرية العقيدة والضمير ••• وهكذا الداروينية : من كونها نظرية علمية تقدمية بالنسبة لبعض من كان غاضبا على كنائس القرن التاسع عشر ، الى كونها مجرد نظرية ـ لم تثبت صحتها علميا حتى الان ـ رجعية راح يدور حول محورها في البلدان الشيوعية اليوم دولاب اضطهاد حريات الافراد والشعوب • ومن قبل ، كان الذى يكفر بتعاليم البابا وجلاوزته ونظرياتهم مما يتعلق بالسحر والساحرات أو فيما يتعلق بالنظام البطليموسي الفلكي ونحو ذلك ، يعاقب بالقتل والتشريد والحرمان • أما اليوم ، فان الذي لا يؤمن بنظرية دارون أو يكفر بها فيعاقب بالقتل والتشريد والحرمان أو الاعتقال في مجاهل سيبيريا !•

فاذا تفحصنا الميدان الفلسفي الذي خاضت الحرية معاركها فيه عبر سني القرن التاسع عشر ، رأينا الفلسفة وقد انقسمت الى معسكرين رئيسيين : معسكر الديموقراطيات المؤمنة بحريات الافراد والمجتمع ، ومعسكر الديكتاتوريات التي لا تؤمن بشيء من حريات الناس .

وكان الفكر الديموقراطي والفلسفة الديموقراطية التي طبعت بطابعها القرن التاسع عشر كما نعلم ، حصيلة أفكار رواد الديموقراطية السابقين الذين كانوا يجيئون ويذهبون منذ أيام « بركليس » حتى عصر الثورة الفرنسية . وكانت مبادىء الحرية والاخاء والمساواة التي انبثقت عنها الثورة هي خلاصة القاموس الفلسفي الديموقراطي الذي كان يستعمله أحرار القرن التاسع عشر . ولقد شهدت أقطار أوربا خلال هذا القرن ثورات ديموقراطية واسعة وحركات تحررية كثيرة أدت بالفرد والمجتمع الى نيل قسط ضخم من حرياته المشروعة بفضل الدينامية الواعية لفلسفة جون لوك وتوماس بين ومونتسكيو وروسو وفولتير وغيرهم . لكن المشكلة التي جابهت الديموقراطية في القرن التاسع عشر هي تنامي الثورة الصناعية التي أدت الى تحكم رؤوس الاموال الضخمة بحريات الألوف المؤلفة من عمال ذلك العصر . كذلك كانت الثورة الصناعية قد تحكمت بمصائر الشعوب والدول بنزوع رؤوس الاموال الجديدة نحو التوسع والاستعمار أكثر من أي وقت مضى ، فأصبحت الرأسمالية المتضخمة هي السيد المطلق السلطة ، الذى احتل محل

الكنيسة والملوك السابقين • وبذلك بدت الديموقراطية بشكلها الرأسمالي الليبرالي مشوهة ، بل أداة يمكن استغلالها من قبل البعض لتصفية الحريات التي تيسرت بعد الثورة الفرنسية للافراد والشعوب • لذلك راح مفكروا ذلك القرن الديموقراطيون يؤكدون على وجوب اقامة الرابطة القوية بين مبدأي الحرية والمساواة ، وهو ما انتج لنا « الديمقراطية الاشتراكية » التي حققت للمجتمع حق استغلال طاقاته وابداع أفراده ، كما حققت للفرد حقه في الحرية والعدل والضمان الاجتماعي ، ثم حقه في حرية الملكية الفردية التي لا تصل الى درجة الخطر على حياة الجماعة وحريات الاخرين •

أما الفلسفة التي ضرب اعداء الحرية معسكرهم على صعيدها في ذلك القرن ، فكانت فلسفة المفكر الالماني « هيجل » دونما شك •• حقا ان فلسفة هيجل قد ساهمت مساهمة كبرى في تجريد الكنيسة من سلاحها الكهنوتي الرهيب وكانت تلك حسنتها الوحيدة التي تقدمت بها الى الجنس البشري والفكر الانساني • لكن قول هيجل بـ « الفكرة المطلقة » وتعقيد فلسفته قد ترك النقاد في شك عميق مما اذا كان يرمي الى تجريد المسيحية من شوائبها أو أنه كان يرمي الى ازالتها من بين ظهراني المجتمع كدين • فلقد تصور هيجل الوجود كله على صورة ما دعاه بـ « الفكرة المطلقة » غير المحدودة بالزمان والمكان ، والتي تقتضي طبيعة وجودها أن تلمس في الحياة الدنيوية ووقائعها كظاهرة طبيعية واعية لنفسها ، تدركها الاذهان وتسميها الروح •

ولقد كانت فلسفة هيجل والحق يقال ، مخزنا هائلا للافكار باستطاعة مختلف التيارات الفلسفية الاغتراف منه • لكن الديموقراطيات وقد أصبحت في غنى عن مصاولة الكهنوت الكنائسي بأسلحة من شأنهـــا ان تفضي الى التضحية بالحريات والقيم الانسانية ، أشاحت عن فلسفة هيجل ك « كل » ، تاركة لأعداء الحرية المجال للسير بها نحو الوجهة التي يريدونها من ناحية نظرتها الى الفرد والدولة والمجتمع • ثم ظهرت فلسفات كان من بينها أشرس ما عرفه الجنس البشري من فلسفة معادية للحريات والشعوب : الماركسية ، والنازية •

وفي الوقت الذى كان فيه المفكرون الديموقراطيون مشغولين في بحث مسألة « كيفية » تطبيق الديموقراطية في حياة الجماعة بعـــد أن اصبحت الديموقراطية هي الفكرة الغالبة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وفي انكلترا على وجه الخصوص ، كان مفكرو الفلسفات الديكتاتورية قد انتهوا من قطع شوط كبير في بنـــاء الهيكل الفلسفي الذي ستذبح فيـــه الديموقراطية التى وهبت للفرد حريته الفكرية وحرية الضمير وحريـــة التعبير عن الرأي وحرية الاجتماع وحريته في تأليف الجمعيات والاقتـراع وحريته الشخصية التي تنتهي بابتداء حرية الاخرين ، ثم ضمان حرمة مسكنه واحترام سرية مراسلاته الشخصية ، وحرية الملكية الفردية الخاصة ضمن الحدود التي لا تصبح فيها مصدرا للظلم الاجتماعي ولا خطرا على الصالح

العام ، في اطار « الدولة الصالحة » التي تعتبرها الديموقراطية الاشتراكية المؤسسة الكبرى التي من شأنها أن تحقق الخير العام والعدالة الاجتماعية في ظل القوانين الصادرة عن « الارادة العامة » التي هي ارادة جميع أبناء الامة .

لقد قال هيجل أن « كل حقيقي عقلي ، وكل عقلي حقيقي » وهو رأى فلسفي صفق له كبار الرجعيين من معاصريه فراحوا يتشبثون بعناد بالانظمة البالية التي كانت تضطهد الحريات على أساس أنها « حقائق » واقعة مما تؤيده فلسفة هيجل .

أما كارل ماركس ، وهو هيجلي قديم ، فقد اتخذ من الديالكتيكية الهيجلية أساسا لفلسفته ، لكنه قال بأن فلسفة هيجل كانت مقلوبة وانه أعادها الى الوقوف على قدميها باتخاذه المادة محورا لفلسفته بدلا من الفكر الذي اعتمده هيجل .

ولقد جاء في فلسفة هيجل ان « العقل العام » يصل الى أقصى حدوده في الحرية ضمن مجتمع مكون من الافراد الاحرار الذين يخضعون بعقولهم لهذا العقل . وان الفرد الذي يعيش منعزلا عن العالم لا يتمتع بحريته . أما الفرد الذى يندمج في جماعة فانه هو الذي يتمتع بالحرية الحقيقية . وان الزمن سائر نحو تحقيق الدولة الكاملة ، وهي الدولة التي يندمج فيها الفرد بالمجموع الكلي بصورة تكون فيها ارادة الكل كما لو كانت ارادته الخاصة

هو • وان هناك عقلا عالميا عاما يمكن اكتشافه بواسطة التاريخ • وان هـــذا العقل العالمي يعمل وفق مصلحة الدول الكبرى القوية المسيطرة • فـــاذا انتصرت دولة على دولة اخرى قوية ، انتقل ذلك العقل العام اليها وأخذ يعمل واياها يدا بيد • فالصراع بين الدول والاقوام يجرى وفقا لنظام الطبيعة ، وان التغير المستمر أمر طبيعي تستوجبه ضرورة التقدم والتطور •

ان فلسفة هيجل هذه تتناقض مع الفكرة الديموقراطية بخصـــوص علاقة الفرد بالدولة • انها تجعل من الفرد مجرد مسمار في ماكنة ضخمة ليس له من أمر حريته شيء • أما فكرة الصراع بين الدول ، فانها تتعارض بدورها مع الفكرة الديموقراطية الهادفة الى تطوير حريات الشعوب الى ما فيه رفاهية الجنس البشري عن طريق تعاونها السلمي في مجالات العلم والفن والاكتشاف من أجل المدنية والحضارة •

ان فكرة تأليه الدولة على هذه الطريقة التي وردت في فلسفة هيجل من شأنها سحق شخصية الفرد « المندمج » بالمجموع وتجريده من كافة حرياته • ذلك ان « الحاكم المطلق » الذي سيسهر على شؤون هذه الدولة ، فردا كان أو طبقة ، لن يسمح مطلقا بوجود من يعارضه في الرأي ، وهو ما ينتج لنا أقسى انواع الدولة المستبدة والديكتاتوريات • ولقد كان من السهل بالنسبة للديموقراطية أن تعتبر « العقل العام » الهيجلي بديلا عن « الارادة العامـــة » التي أوضح شكلها وفعاليتها جان جاك روسو لولا هذه الصفة الصارمة التي

اكسبها هيجل للدولة • فلا ندري أين بقيت الحريات التي منحها هيجل للفرد عند اندماجه في المجموع• وان المرء ليتذكر بهذه المناسبة بعض المقررات الغريبة التى اتخذها « اتحاد الصحافة لدول أميركا اللاتينية » في مارت/١٩٦٤ عندما اجتمع في جمهورية الدومنيكان وقرر فيما قرر أن « التعبير عن الرأي بحرية شيء خطر على الحريات ! • ولقد اهتزت اركان الدنيا وصحافتها بالضحك من هذا القرار ، لكنه قد وجد له صدى طيبا في الديكتاتوريات القائمة في الشرق والغرب حيث انه كان قرارا هيجليا لحما وعظما •

وكان كارل ماركس قد أخذ فكرة الصراع عن هيجل كمبدأ ، لكنه قال ان الصراع الطبيعي الجاري هو ليس بين الدول ، انما بين الطبقات • وهو اذ يفسر التاريخ تفسيرا ماديا اقتصاديا يخلص الى القول بأن الطبقة العاملة هي التي يجب أن تسود المجتمع بعد سحق بقية الطبقات بالعنف والقوة • ولقد مد ماركس فكرة سيادة الطبقة العاملة الى العالم كله بحيث تكون هناك طبقة واحدة متحكمة في شؤون الدنيا والجنس البشري على أساس من اضطهاد بقية الطبقات • وهذه الدولية العالمية لطبقية ماركس ، قد برزت واضحة في في المنشور الشيوعي الذي وقعه مع فردريك انجلز عام ١٨٤٧ والذى اختتماه بالشعار المعروف « يا عمال العالم اتحدوا » • ترى الى أي مدى يمكن أن تنسجم « الطبقية الماركسية » مع الحريات ؟

الذي نعرفه هو انه ولا الى مدى خطوة واحدة •

ان الفلسفة الماركسية عندما تفرض سيادة طبقة معينة على العالم ، فانها بذلك تشجب ، بل تحرم على الانسان « حرية الدفاع عن وطنه » قبل كل شيء آخر • ذلك انها تعتبر الجنود المجندين في الجيوش النظامية عمالا دفعت بهم الرأسمالية الى حمل السلاح تحقيقا لاغراضها • وحيث ان الماركسية تعتبر العمال في جميع دول الارض أخوانا من الخطأ أن يقتل بعضهم البعض الآخر ، فانها والحالة هذه تحرم على جنود جيشين تابعين لدولتين متنازعتين تبادل اطلاق الرصاص وخوض المعارك على اعتبار ان ثمرة هذا القتال كله سيكون من نصيب الرأسمالية التى هى ـ كما تقول الماركسية ـ عدوة العمال • انها توصى وتطالب جنود الجيشين المتقاتلين بادارة فوهات بنادقهم ومدافعهم الى الخلف وتصويبها نحو الطبقة الرأسمالية والحكومة الرأسمالية لسحقها بالحديد والنار واقامة دكتاتورية الطبقة العاملة على أشلائها في غمرة من العنف والقسوة التي لا تعرف الرحمة مع كل من هو غير شيوعي ماركسي ، وذلك بدلا من تصويبها الى صدور العمال المجندين في جبهات القتال •

وعيب النظرية الماركسية هنا أوضح من ان يشار اليه بتلميح • ذلك لأنها تفترض ان كل حكومة تقوم بواجب الدفاع عن الوطن حتى اذا كانت ديموقراطية واشتراكية غير شيوعية ، انما هى حكومة رأسمالية • كذلك فانها تفترض أن الجيش في أية دولة غير شيوعية انما هو مجموعة من عمال

مجندين ، وهو ما يخالف الواقع • فقوانين التجنيد في كثير من بلدان العالم تسرى اليوم على جميع طبقات الشعب لا فرق في ذلك بين عامل أو فلاح أو كاسب أو تاجر أو مثقف أو طالب في سن الجندية بالاضافة الى ألوف الضباط ونواب الضباط وضباط الصف ممن لا يمتون الى العمال بصلة • هذا مع العلم بأن هذه النظرية قد أغضت عن وجود الفلاحين في الجيش علما منها بأنه ليس هناك مثل الفلاح من يستميت في الدفاع عن الارض التي يفلحها ويزرعها ويسقيها بأتعابه وجهوده • فالفلسفة الماركسية على علم تام بأن تربية الفلاح تربية وطنية تشده الى الارض التي احتضنت تاريخه ووعيه القومى من شأنها ان تبدد السحر الذى يشعوذ به الكثير من الايديولوجيين الماركسيين •

وعيب الفلسفة الماركسية هنا أيضا ، يبدو في اسباب الحرب • فالدافع الى حمل السلاح ليس شيئا يتعلق برأس المال بالضرورة ، انما هناك دوافع كثيرة أخرى يمكن أن تكون دينية أو قومية أو ضد الاستعمار أو دفاعا عن مثل عامة تتعلق بالحريات كما جرى للديموقراطية ضد الديكتاتوريات الفاشية الايطالية والنازية الالمانية ، أو دفاعا عن النفس ضد الديكتاتوريات التي هى نفسها تسحق روابط الانسان بوطنه ودينه وعائلته وتتبنى سياسة القتل والسحل والتمثيل بجثث ضحاياها من نساء وأطفال ، كالسياسة التى نفذها بعض عملاء هذه الديكتاتوريات في بلادنا ، في كركوك والموصل

على سبيل المثال • لكنك اذا جابهت الفلسفة الماركسية بهذا المنطق فسيقول عنك الماركسيون بأنك « شوفينى » ، فهل أدرك القاريء الآن معنى النظرية الشوفينية الماركسية ؟

ان النظرية الشوفينية تحرم عليك حمل السلاح بدافع من قوميتك أو دينك أو وطنك أو مثلك الديموقراطية أو أى شيء آخر عزيز عليك مما هو لا يمت الى الماركسية بصلة • وبمثل هذه النظرية واللغو الفلسفى المتهافت ، تنطلق الماركسية للسيطرة على العالم • انها لا تريد ـ على سبيل المثال ـ أن تطلق الجيوش غير الشيوعية ولا طلقة واحدة دفاعا عن بلدانها تجاه جيش أي بلد شيوعى زاحف مهما كانت الاسباب • وهي من جهة أخرى ، تحاول زرع العناصر الماركسية سرا في صفوف جيوش البلدان غير الشيوعية كى يسهل لها أمر تحقيق الدولية العمالية الموهومة ولتتمكن هذه العناصر من السيطرة على الجيش وفعاليته في الوقت المناسب • لذلك نرى دول البلدان غير الشيوعية في مختلف أنحاء العالم لا تسمح للشيوعيين بدخول جيوشها على اعتبار أنهم عملاء دولة اجنبية ، بل ان معظم هذه الدول قد حرمت على الشيوعيين الوظائف المدنية والمشاركة في الاعمال العامة البسيطة حرصا منها على سلامة الوطن ولتقوية الرابطة الاصيلة بين الفلاح والارض التي يعيش عليها ، وبين العامل والمجتمع الحر الخير الذى يبادله عطاءا بعطاء ـ وهو ما يحاول الشيوعيون افساده •

ولقد رأينا كيف اهتزت اركان اوربا وهي تضحك على القرار الكهنوتي الذي اتخذه الفاتيكان في أواسط القرن التاسع عشر عندما قال بـ « عصمة » البابا الذي كان الى ذلك التاريخ رمزا لاضطهاد الحريات . ثم جاءت الفلسفة الماركسية لتلعب نفس الدور الذي لعبه الفاتيكان . انها خولت نفسها حق اضطهاد الديموقراطية ونفس تلك الحريات وجردت الكنيسة من سلطتها في هذا الموضوع فأقامت من « طليعة الطبقة العاملة ! » الذي هو الحزب الشيوعي ، كنيسة ماركسية راحت تفتي بعصمة أفكار كارل ماركس ، ثم بعصمة سكرتير الحزب الطليعي القائم على أساس فلسفة كارل ماركس . ولقد أدت سرقة آلة اضطهاد الحريات من الكنيسة الكهنوتية ، واستلام الماركسيين لهذه الآلة الى قيام أسوأ ما شهدته البشرية من ديكتاتوريات : ديكتاتورية ستالين .

ولقد كان ستالين بحق أكبر الطغاة الذين أنجبتهم فلسفة الدولة الهيجلية الديالكتيكية التي تزوجها كارل ماركس بعد أن تفنن في تزجيج أهدابها وصبغ مباسمها بقاني الدماء . لقد كان ستالين طاغية في الحزب ، ثم طاغية في الطبقة التي يدعي ذلك الحزب تمثيلها ، وبالتالي جبارا في الدولة العالمية التي كان يتوهم ستالين قيامها في ظل ديكتاتورية هذه الطبقة . ولقد اضطهد ستالين الحريات أسوأ الاضطهاد ، وسحق كل مفاهيم الديموقراطية في الحرية والاخاء والمساواة ، وقام بقتل الابرياء من أبناء شعبه من عمال وفلاحين

ومثقفين وغيرهم ، كما قام بتعذيبهم قبل قتلهم بالجملة . وفي الرابع عشر من شباط / ١٩٦٤ ألقى « سوسلوف » سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي خطابا نشرته جريدة برافدا الروسية ، حمل فيه كلا من مولوتوف وكاغانوفيتش وجورجي مالينكوف مسؤولية مشاركتهم ستالين في هذه الجرائم وقرر طردهم من الحزب . وكانت جريدة برافدا نفسها هذه قد قالت من قبل في ٢٦ نيسان ١٩٤٩ : « اننا لا نؤمن بثلاثة أشياء : الله والدين والملكية الخاصة .. ونؤمن بدلا عن ذلك بثلاثة أشياء : كارل ماركس ، ولنين ، وستالين . » وذاك هو ما أدت اليه « الطبقية الماركسية » . انها انتزعت دولاب التفتيش والتعذيب من يد البابا « غريغوري التاسع » لتسلمه بعد سبعمائة سنة بالضبط الى البابا الماركسي الجديد « ستالين الاول » ؛ بل لم تكتف بذلك وحسب ، انما نصبته جبارا هيجليا في الارض بعد أن كفرت باله السماء . فالواقع ان الماركسية تؤمن بوجود دين معين واحد على الارض ، هو الدين الماركسي الذي يرمي الى سحق جميع الاديان الاخرى ، والذي يعبد الناس فيه طاغية ماركسيا هو سكرتير حزب الطليعة الماركسية .

ولم تشهد الديموقراطية من عدو غادر لئيم منذ أيام ازدهارها في عصر بركليس حتى هذه الايام كالذي شهدته في الماركسية . والديموقراطية كما نعلم هي حضن الأم الرؤوم للحريات . وكان من بعض ما وهبته هذه الديموقراطية للانسان هو حرية الضمير ، أي لا اكراه في الدين . لكن

الفكر الهيجلي الممسوخ يتفلسف بشقاوة ويقول ان « الدين أفيون الشعوب !»، وانه يجب سحق الاديان السماوية كلها بالعنف والقوة ، وانه يجب الغور الى اعماق ضمير الانسان والويل لمن سيوجد لديه أثر من آثار الدين ، فذاك هو عدو الدولة وعدو الشعب وعدو الشيوعية ... ويا لبؤس الفلسفة .

وللماركسية في محاربة حرية الضمير والدين أقوال كثيرة قد تضيق في شرحها والتعليق عليها الكتب الفلسفية الضخمة . لكننا ونحن في معرض الحديث عن الحريات لابد لنا من الاشارة الى بعض آراء الفلاسفة الماركسيين التي اتخذ منها الشيوعيون منطلقا لاضطهاد الاديان . ففريدريك انجلز مثلا يقول : « ان وجود الفكرة المطلقة السابقة على وجود الارض مما أتى به هيجل ، ليس الا بقايا وهمية للايمان بخالق فوق مستوى البشر ، بينما العالم المادي الذى ندركه بحواسنا والذى ننتمي اليه انما هو الحقيقة الوحيدة . » . ويقول كارل ماركس : « يجب ان يعتقد الانسان الشيوعي بأن التاريخ نفسه من خلق الانسان ومن عمله . وان الطبيعة انما صارت في هذا التاريخ بالانسان . وان الانسان يملك الدليل المحسوس على خلقه هو لنفسه . » وحيث ان الماركسية ، كما يعتقد الماركسيون ، معصومة من الخطأ ، فان القول باله خالق للسماوات والارض أو عبادته يعتبر اعتداءا على الفلسفة الماركسية وتحديا لها ، وهو ما يلزم السلطات الشيوعية اضطهاد المؤمنين بالاديان السماوية والقضاء عليهم دونما رحمة .

والماركسية ترفض الديموقراطية وحرياتها جملة وتفصيلا • انهـا تؤمن فقط بالحرية الغوغائية النازعة نحو العنف لسحق جميع النـاس غير الشيوعيين من أجل اقامة ديكتاتورية طبقة معينة هي في الواقع مستعبدة من قبل حزب هو بدوره أيضا مستعبد ايديولوجيا ونفسيا من قبل فرد هو هذا « الجبـار » الهيجلي • ويوضح لنين مدى عداوة الشيوعية للديموقراطية والحريات بكلمات قلائل بسيطة اذ يقول : « ومن المعلوم انه حيثما وجـد سحق وحيثما وجد عنف فلا يمكن للحرية ان تستقر أو تستقـر معهـا الديموقراطية » • وقبل لنين ، كان فريدريك انجلز قـد أوضـح موقـف الماركسية من الحرية بجلاء عندما كتب في ٢٣/مارت/١٨٧٥ رسالته المعروفة الى زعيم حزب العمال الالماني « بيبل » والتي جاء فيها : « ان هيئة العمـال بحاجة الى الدولة في سبيل نشر الحرية التي تمكنها من سحق خصوم العمال فقط ، أما عند الكلام بعد ذلك عن الحرية فليست هناك حاجة الى بقائها ـ أى الحرية » • وفي المقدمة التي كتبها انجلز أيضا لبعض مقالاته ، والتي نشرت عام ١٨٩٤ ، وصف موقف الحزب الشيوعي والشيوعية بصورة عامة من الديموقراطية اذ قال : « انه حزب يرمي في النهاية الى ابطال كل نوع من أنواع الدولة ، وبالتالي الى ابطال كل نوع من أنواع الديموقراطية » • ثم يأتي لنين ويؤكد على أقوال فريدريك انجلز هذه فيقول : « ان ابطـال الدولة هو ابطال الديموقراطية ، وان فناء الدولة يعني أيضـا فناءها ـ أي

الديموقراطية . »

والديموقراطية كما هو معروف لدى من يفهم الف باء الفلسفة ، بأنها مبدأ انصياع الاقلية للاكثرية عن طريق الاقناع والاقتناع دون القسر والعنف . لكن الماركسيين يتفلسفون بغباوة منقطعة النظير فيوردون للديموقراطية تعاريف هي في الواقع شتائم تدعو الى الاشفاق على المنطق الماركسي الركيك . يقول لنين : « ان الديموقراطية شكل من اشكال الدولة يرمي الى اخضاع الاكثرية (!) للاقلية . أي انها نظام العنف المرتب والمنظم لاخضاع طبقة لطبقة أخرى بواسطة حزب من أحزاب الاهالي هو ضد بقية الاحزاب » .. وهكذا رمتني بدائها وانسلت دونما خجل . ان هذه الشتيمة الفلسفية الشيوعية ان انطبقت على حزب من الاحزاب في الدنيا كلها ، فانما تنطبق على الحزب الشيوعي بالذات ، وعلى الشيوعية دون الديموقراطية . اذ أي حزب في العالم ، أو أية فلسفة فيه ترمي الى فرض سيادة حزب من الاحزاب على المجتمع كله بالعنف والقوة ، غير الشيوعية ؟ ذاك شيء لا يختلف فيه اثنان .

والماركسيون يطالبون بالحرية عندما يكونون بعيدين عن السلطة فقط ، وذلك لاتخاذها وسيلة لممارسة العمل السياسي وبث الدعوة الشيوعية . اما عندما يتولون السلطة ، فانهم يحجبونها عن جميع الناس . وكان كارل ماركس قد أوصى شيوعيي فرنسا باستغلال الحريات الديموقراطية لصالح

الشيوعية من أجل فرض الشيوعية على باريس قبيل قيام الكميونة عام ١٨٧١.

وفي عام ١٩٠٣ ، قال لنين : « نحن نطالب السلطات بأن تمنح المواطنين حرية الكلام والاجتماع والتنقل ، ونطالب بمنح الشعب حريات سياسية كاملة خالية من كل قيود ، واننا لن نكف عن المطالبة بهذه الحريات الا بعد أن يقوم النظام الشيوعي الذي لن تكون هناك حاجة في ظله ، للحريات » .

وقال لنين أيضا عام ١٩٢٠ : « نحن لا نستطيع الاخذ بآراء الاغبياء والمخبولين الذين يطالبون بالحرية . فنحن في ظل ديكتاتورية البروليتاريا لا نستطيع أن نمنح المواطنين حريات سياسية خشية ان تستغل في القضاء علينا . » . وفي عام ١٩٢١ قال لنين كذلك : « ان القوانين في نظمها لا تحمي الحريات، ويجب ان لاتحميها ، الا اذا كانت هذه الحريات هي السبيل الوحيد لتحقيق الأهداف الشيوعية . »

وكان لنين قد أبدى رأيه في القانون والحريات عام ١٩٠٥ فقال :

« القانون الذي نفهمه نحن ، هو القانون الذي يحقق للشيوعية أهدافها ، اننا نريد أن يكون القانون متساهلا ومتهاونا وضعيفا كي يستطيع الشيوعيون ان ينشروا مبادئهم بلا خوف من عقاب . اما القانون في الدولة الشيوعية ، فمن اللازم ان يكون صارما وعنيفا لايمنح أية حرية لأعداء الشيوعية . » .

أما ستالين ، فقد قال عام ١٩٢٧ : « اذا كان الذين يتحدثون عن حرية الصحافة يقصدون منح العناصر البورجوازية حرية القول والنشر فأنني لا

أتردد في القول بأن حرية كهذه لن توجد في بلادنا التي تؤمن بديكتاتورية البروليتاريا . » .

وفي عام ١٩٢٩ ، قال ستالين أيضا : « يجب ان يكون الرأى العام لا اكثر من انعكاس لمبادئنا وآرائنا . »

وبخصوص حرية الفكر ، قالت جريدة « الثقافة والحياة » السوفييتية في عددها الصادر في ١١/ آذار /١٩٤٧ : « يجب ان يكون مفهوما اننا في سبيل تثقيف الرأي العام لن نتردد في الحد من حرية الفكر . ان حرية الفكر كما نفهمها ، هي حرية استخدامنا الوسيلة التي تحقق اهدافنا الشيوعية . » .

وفي عام ١٩٤٩ ، قال جورجي مالنكوف : « اننا لانريد تشجيع الحرية الفردية في ميدان الادب والعلم والفن . ان ظهور أي مذهب علمي أو أدبي أو فني يتعارض مع أهدافنا ، من شأنه أن يلحق بنا اشد الاضرار ،ويعرضنا لأكبر الاخطار . » .

وفلاسفة الماركسية ، وعلى رأسهم ماركس ، لايرون الناس من غير الشيوعيين جديرين بهذه الحرية التي ينعم بها الفرد في ظل الدولة الديموقراطية . والاغرب من ذلك هو انهم مع لهائهم وراءها لهاث كلاب الصيد في المجتمع الديموقراطي ، فأنهم لايعتبرونها « حرية حقيقية » ... ولكن لماذا ؟ لمجرد ان هذه الحريات من معطيات « الدولة الديموقراطية »

التي لاتعترف بالشيوعية والديكتاتورية الماركسية المرسومة لطبقة معينة •لذلك نرى كارل ماركس يفتتح المعركة مع الدولة الديموقراطية بمنطق فلسفي دموي متداع فيقول بوجوب « سحق الدولة » الديموقراطية وازالتها من المجتمع كي تتمكن طبقة بعينها من ممارسة حريتها في ابادة بقية الطبقات في بحر متلاطم من الدم •

يقول كارل ماركس ان الدولة بشكلها الدموقراطي تمثل مؤسسة « ديوانية عسكرية » ـ اي انها تحتوي على أجهزة مدنية هي دواوين دوائر الدولة التي يشتغل فيها الموظفون ، كما تحتوى على جيش وشرطة مسلحة • وان هذه « الديوانية العسكرية » بالاضافة الى الدين الذي تسمح بوجوده الدولة الديموقراطية في المجتمع ، تمثل جميعها جهازا ضاغطا يردع الشيوعيين ويمنعهم من سحق بقية الطبقات واقامة الديكتاتورية الطبقية • عليه كان من رأي ماركس أن تسحق هذه الدولة مع ديموقراطيتها ليقوم الشيوعيون بممارسة الضغط والسحق والابادة بحرية •

يبادر كارل ماركس الى تصويب نار أفكاره الى جيش الدولة الديموقراطية فيقول : « لقد بدأت الشيوعية أعمالها بأصدار أمر بالغاء الجيش الدائم والاستعاضة عنه بالشعب المسلح • » ••• وهي فلسفة غوغائية صريحة يرمي من ورائها الى تسليح الغوغاء وقذفهم الى الشوارع وتوجيههم نحو بيوت غير الشيوعيين وممتلكاتهم لغرض الابادة الجماعية •

ثم يخطو ماركس خطوته الثانية في الغاء الدولة فيتناول الموظفين المدنيين مع الجيش ويقول : « ان الشيوعية قد حققت وجود الدولة ذات الاجر البخس بالغائها أعظم مصدرين للانفاق ـ الجيش الدائم وموظفي الحكومة » .

بعد ذلك تأتي الخطوة الماركسية الثالثة فيتوجه ماركس ومعه فردريك انجلز الى سحق الدولة الديمقراطية برمتها بأضافة العائلة والدين الى الجيش وموظفي الدولة في عاصفة من اللغو الفلسفي المخيف ليقيموا ديكتاتورية طبقية ماركسية اباحية لا دينية يقف في قمة هرمها كارل ماركس نفسه أو من يأتي من بعده أمثال لنين وستالين من شراح فلسفته من الساديين ، فاذا رفض زعماء الديمقراطية الاشتراكية القدامى كل هذا اللغو ، فالويل عندئذ لبيبل ، والويل للدكتور كارل كاوتسكي مما يحويه قاموس لنين الشتائمي من سباب .

ان جيش الدولة الديموقراطية هو القوة التي تذود عن حريات مواطنيها وتقف بوجه اعداء الحرية الخارجيين . أما دواوين الادارة والقضاء والشرطة المسلحة ، فكلها أجهزة تتعاون في الدولة الديموقراطية لحماية الحريات ومنع الاستغلال بكل أنواعه ، والمحافظة على كرامة الفرد والعائلة والمجتمع والدين والحقوق جميعا ، وفقا لاحكام القانون الذى يصدر عن « الارادة العامة » ، ارادة الشعب الحرة التي تفرض نفسها على الجماعة عن طريق

الاقناع والاقتناع .

ان عيب الفلسفة الماركسية وعدم واقعيتها يكمن في ان ماركس يتصور بأن جميع عمال العالم أو أغلبيتهم الساحقة يمكن أن يتقبلوا ببساطة وسهولة الافكار الماركسية . لكن الواقع قد اثبت بصورة قاطعة بأن الغالبية العظمى من عمال العالم يرفضون الاخذ بأفكار ماركس وانجلز خاصة فيما يتعلق بمسألة « الدفاع عن الوطن » والغاء الدولة ومحق العائلة والدين . لقد كانت الصفعة التي تلقتها الماركسية قوية عندما بادر ملايين العمال الالمان الملتفين حول قادة الديموقراطية الاشتراكية ، الى حمل السلاح والدفاع عن الوطن بغيرة منقطعة النظير على الرغم من معارضتهم للسياسة القيصرية الالمانية في الحرب العالمية الاولى . وقد تدهش الماركسية عندما ترى اليوم ملايين العمال في جميع انحاء العالم ممن لا يقبلون ان يعتدى أحد على شرفهم في دينهم وزوجاتهم وأخواتهم وبني قومهم ووطنهم .. ان صخرة الفلسفة الديموقراطية ضخمة متماسكة الكيان . فليجرب ما شاء في زحزحتها ذوو ذوو القرون الغليظة من الوعول . ان الغاء الدولة في نظر الديموقراطية ، هو الغاء لكل القيم الانسانية في المدنية والحضارة بالاضافة الى الغاء الحريات .

ومثلما أنتجت لنا فلسفة هيجل الماركسية أنتجت لنا كذلك الفاشية . والفاشية مثل الماركسية من ناحية نظرها للحريات . انها ترى أن يكون

الانسان مجرد مسمار في آلة ضخمة يتحرك مع حركتها تماماً كالماركسية . لكن هذه الآلة التي سحقها ودمرها ماركس بقسوة عندما سحق الدولة ، قد أبقى عليها الفاشست .

ترى الفاشية أنه لاتوجد هناك شخصية ذاتية مستقلة خاصة بالفرد ، انما تندمج شخصيته في شخصية الدولة . والدولة في نظر الفاشية موجود ذو كيان عضوي تتكون أجهزته من مختلف طبقات الأمة ونقاباتها ومنظماتها ومؤسساتها ، كما تتكون حجيراته من الأفراد . فالدولة اذن في نظر الفاشية ذات جسم ذي طبيعة عضوية ، وانه مشابه تماماً في وجوده لجسم الانسان ، وتلك هي خلاصة نظرية التركيب العضوي الفاشية . وعيب هذه النظرية واضح كل الوضوح . ذلك لأن علم الحياة الذي يطبق على جسم الانسان ككائن عضوي ، لايمكن تطبيقه على المجتمع بسبب استقلال أفراده عن بعضهم بكيانهم العضوي الخاص .

والغرض من تشبث الفاشية بهذه النظرية واضح أيضاً مثل وضوح عيبها . فالفاشية ترى ان رأس هذا الكائن العضوي الضخم ـ الدولة ـ انما هو الزعيم . وحيث ان الأفراد جميعاً لا أكثر من حجيرات في جسم هذا الكائن ، لذا فان شخصياتهم وحرياتهم ومقدراتهم ومصائرهم ستكون جميعها رهينة بارادة ورأي الزعيم ، يتصرف بها كيف يشاء .

ولقد جسم « ميثاق العمل » الذي أصدره المجلس الفاشستي الأعلى

عام ١٩٢٧ هذه النظرية العضوية في الدولة اذ جاء في مادته الاولى :

« الأمة الايطالية كائن عضوي له حياة خاصة وله أهداف ووسائل هي أهم وأسمى من أي فرد أو جماعة مندمجة في كيانها • والأمـة عبارة عن وحدة معنوية وسياسية واقتصادية تظهر بشكل دولة فاشستية » •

ولقد تناول فلسفة هيجل في الدولة مفكرون وفلاسفة آخرون أضافوا اليها وشذبوها وفسروها حسب وجهات نظرهم • ففي ايطاليا ، تأثر موسوليني باستاذه الزعيـــم الفرنسي السنديكالي جورج سوريل • وكان الفاشست الايطاليون قد أخذوا بنظرية هذا المفكر في « الاسطورة الاجتماعية » وقالوا انه نظرا لصعوبة سير الانسان على ضوء التفكير والعقل ، عليه وجب توجيه الناس وتوحيد جهودهم بموجب اسطورة أو عقيدة تهز مشاعرهم ، وان هذه الأسطورة الاجتماعية هي الدولة • أما الفاشية الألمانية ـ النازية ـ فتقول ان هذه الاسطورة انما هي العرق أو العنصرية • وكان الفيلسوف الالماني «فيخته» قد قال : « ان وظيفة الدولة هي توجيه كافة القوى الفردية لتوفير الحياة للعرق أو العنصر • » • فالنازية ترى أن وظيفة الدولة تنحصر في المحافظة على كيان هذه الاسطورة ، ولا ترى فيها ـ في الدولة ـ الاسطورة ذاتهـــا •

في هذه الدولة الفاشستية التي شطبت شخصية الفرد من حسـابها ، حارب الفاشست النزعة العقلية بفلسفة متهافتة فقالوا ان فسح المجال للناس

للمطالبة بالحجج والبراهين على ضوء العقل والمنطق من شأنه أن يؤدي الى استحالة تنظيمهم في هيئة اجتماعية ذات وحدة متماسكة ، وهو لغو فلسفي الغرض الأول والأخير منه القضاء على آخر ما تبقى للانسان من حرية بشل تفكيره وتكميم أفواه الناس بحيث لايستطيعون نطق كلمة واحدة احتجاجاً على تصرفات دكتاتور مجنون .

وكانت فلسفة نيتشه بالاضافة الى فلسفة هيجل قد خلقت شكلا مخيفا لدولة عنصرية عرقية ذات نظام دكتاتوري يرمي الى السيطرة العالمية واستعباد الشعوب الاخرى بالاضافة الى سحق جميع حريات المواطنين في تلك الدولة .

وتدور فلسفة فريدريك نيتشه حول « ارادة القوة » فهي محورها ، وهو يراها منعكسة على ما يجري من كفاح مستمر في الكون حيث يكون النصر من نصيب الأقوياء دائماً ، فهو لذلك يرى أنه لا حق للضعفاء في البقاء . ويرى نيتشه أن البشر متفاوتون في القوة ، ولذلك فانه يدعو الى سيطرة الأقوياء على الضعفاء ووجوب خضوع هؤلاء لهم ، ويرى أن نظام الاستعباد والاسترقاق انما هو نظام طبيعي ، فهو يرفض الديموقراطية من حيث انها تأخذ بمبادىء الأخاء والحرية والمساواة . ويرفض كذلك مبدأ مساواة المرأة بالرجل لكونها أضعف منه خلقة . كما يقسم الناس الى طبقتين : طبقة السادة هي التي يجب أن تتولى مقاليد السلطة لتحكم على

هواها كما تريد دون أن يكون هناك حق لأحد بالاعتراض على تصرفاتها وما ترسمه من أحكام •

وفي الوقت الذي تم فيه انتصار الماركسية على الحرية في روسيا في مطلع هذا القرن ، كانت هناك جوقة من المفكرين الألمان يهيئون لقيام الدولة النازية على أساس من فلسفة هيجل ونيتشه • وكان من بين هؤلاء «راتينو» الذي يقول ان الأخذ بفلسفة نيتشه وخلق ألمانيا التي « تجرمن » أوربا بقيادة نخبة ألمانية مختارة يخضع لها الشعب خضوعا مطلقا انما هو الديموقراطية الحقة !• وكان من بينهم أيضا الكونت «كيسرلنغ» وهو مفكر من أتباع نيتشه المخلصين حيث يرى أن ما يحقق السعادة الكاملة للبشرية هو أن تقوم في المجتمع فئة ارستقراطية المانية تتولى القيادة والحكم بصورة لا تدع مجالا لأحد يناقشها الحساب ، وذلك ضمن دولة ذات طبيعة ديكتاتورية تقود جماعات البشر على هواها !

أما « توماس مان » فخلاصة فلسفته قوله ان الحضارة من انتاج عبقري • وان هذا العبقري لايمكن أن يكون غير عبقري في أية ناحية من نواحي الحياة • ومثل هذا الرجل يجب أن يكون رأس الدولة الذي لايناقش له رأي • وان الحكم القائم على أساس تولي الصفوة الممتازة من الالمان لمقاليد الحكم في دولة يترأسها عبقري تخضع له جميع الطبقات والمؤسسات والدول ، انما هو الحياة الديموقراطية الصحيحة !

ولقد شهد كل من كيسرلنغ ومان مولد الحزب النازي المنتظر • أما شبنجلر ، فقد نام في قبره قرير العين بعد أن صفق ثلاث سنوات لهتلر اذ توفي عام ١٩٣٦ •

وشبنجلر علم من أعلام الفكر النازي وركن من أكبر أركان النازية والفاشية الحديثة • وكان هذا الفيلسوف على ضخامة فكره الجبار من أكبر أعداء الحرية في هذا القرن العشرين • وكان الرجل ـ ولست في معرض الدفاع عنه ـ وطنيا الى أقصى حدود الوطنية ، والى درجة ساقته معها هزيمة المانيـــا في الحرب الأولى الى توجيه فلسفته وجهة البشر ومعـاداة البشرية كلها • وينهض شبنجلر في محاولة لبعث الحياة في المانيا فيقول وقد تملـكه الحقد على الدنيا بأجمعها : ان ارادة الحياة هي ارادة الموت ذاتهـــا • وان الانسان مضطر لأن يجد نفسه ملزماً أن يعيش عمره بين هاتين الواقعتـين المتلازمتين • وان الحياة نفسها ، أينما وليت وجهك في هذا الـكون ، هي الحرب التي لا هدنة فيها ولا سلم • انها حرب أبدية •

ويرى شبنجلر ان ليست هناك ضرورة لدراسة العلل والنتائج وتدقيق الأحداث التاريخية المسجلة • انه يرى أن الحدس والنظر الى واقع الاشياء من داخل النفس الانسانية هو الذي يؤدي الى تلمس الحقائق • وهو يكمل رأيه هذا فيقول بأن المستقبل هو الماضي ، وان التاريخ يعيد نفسه من خلال الصراع المستمر • فنابليون قد أحيا في شـخصيته تاريخ القيصر الروماني

وتاريخ الاسكندر المكدوني • وهكذا التاريخ : موت وبعث •

ويرى شبنجلر أن كل حضارة تتملك من الخصائص ما هو لصيق بها وحدها ، ومن مميزاتها دون غيرها • لذلك فهو يؤمن بالحضارة الألمانية ، والعرق أو العنصر الذي أوجدها ، ثم بتفوق هذا العنصر على غيره ، تماما كما تفلسف نيتشه •

وهكذا يفقد هذا الفيلسوف السيطرة على رشده فنراه يندفع وراء عاطفته وحقده فيقول : « ان أشرف الحيوانات هو أشدها بطشاً وافتراساً ، عليه فان أشرف الناس هو أقواهم وأشدهم بلاءاً في سحق الضعفاء في الحرب • » وهي فلسفة لها أصول مستمدة من واقع الهمجية التي عاشها الانسان في عهد الغاب ، مما لم يترد الى قرارها المظلم هذا أي فيلسوف سبق شبنجلر ، بما في ذلك نيتشه •

واذ يركز شبنجلر على الصفوة الألمانية الممتازة يقول عنها وعن أفرادها انهم كل شيء • فالقيادة يجب أن تكون لهم ؛ والخضوع يجب أن يتم لهم • انهم يكونون طبقة ، هي طبقة النبلاء المبدعة التي تأتينا بكل شيء سام وجليل في السياسة والحرب • فهي عماد الوطنية الألمانية وعماد ألمانيا •

ويرى شبنجلر بأن التاريخ ما هو الا الدولة عندما تكون في حالة الحركة • وان دستور هذه الدولة يجب أن يكون دستورا حربيا غير مكتوب على ورق • فالحرب في نظره منبع لكل شيء عظيم ونبيل • وان كل شيء

ذا معنى سام انما أصله الحرب • والدولة ليست أكثر من صورة للامة في حالة حركة ، أو بالأحرى انها الأداة التي يتحسس بها الشعب الاخطار قبل وقوعها مما يدعوه الى التحفز للهجوم • فالدولة هي الهجوم بمعناه الكامل اذا كانت الحياة في صعود • والحرب ـ كما يرى شبنجلر ـ ضرورة من ضرورات وجود الدولة ، وان الكوارث والدمار والخراب الذي تصاب به الحياة المدنية والأفراد والثروات العامة انما هو شيء ضئيل ويسير بالنسبة لوحدة المجموع الحي الذي هو الدولة ، وهي الوحدة التي تتحقق بقيام الحرب •

ويرى شبنجلر ان لدى كل فرد في المجتمع فعالية غريزية مرتبطة بقوة بالأرض والدم • وان الصفوة الممتازة من هؤلاء الأفراد هم النبلاء الذين يمثلون الطبقة السياسية التي يجب أن يكون بيدها كل شيء • والسياسة في نظره جزء من الحرب ، فهي مندمجة فيها ، وليست السياسة أكثر من حركات حربية خاضعة لأكبر قانون في الحياة ألا وهو قانون الحرب •

ويرى شبنجلر بأن الحضارات مثل الكائن العضوي ، محددة بواقعتين هما مولد الحضارة وموتها • وان مسير الحضارة في هذا الاتجاه الحتمي الذي يسير فيه أي كائن عضوي آخر يجعلنا قادرين على التنبؤ عن مولد الحضارات التي ستخلق في المستقبل القريب والبعيد ، والتنبؤ كذلك عن مصير الحضارة الحالية القائمة الآن • ويقول شبنجلر بأن يقظة الروح هي

التي تؤدي الى ميلاد الحضارة • وان الحضارة يوم مولـــدها ترى نفسها محاطة بصور مختلفة معادية لها ، وهو ما يفرض عليها الاشتباك معها في صراع وقتال شاق مرير الى أن يتهيأ لها النصر عليها ، ثم انها تبـدأ بتكييف تلك الصور المعادية على شكل صورتها • ويجمل شبنجلر الحضارات التي قامت في العالم في ثلاث حضارات هي الحضارة القديمة ، والحضارة السحرية ، ثم الحضارة الغربية التي هي الحضارة الفاوستية • وتسمى الحضارة الغربية بالفاوستية نسبة الى « فاوست » وهو من أبطال روايات « غوته » • وحيث ان فاوست هذا ألماني ، وان ألمانيا بمثابة القلب من أوربا ، أو بالأحرى انها قلب الحضارة الفاوستية ، كما يقول شبنجلر ، فانه يرى أن الألمان هم قادة الحضارة الغربية وعمادها وانهـــم يجب أن يقوموا بدورهم القيادي هذا لتحقيق رسالة هذه الحضارة على مســـرح التاريخ العـام الذي هو الكرة الأرضية بكاملها •

ويتكلم شبنجلر عن رأيه في طبيعة الدول القائمة في عصره ، وينبـه الألمان الى أن روسيا قد أصبحت دولة ذات مطامع واسعة وأنها خطر مخيف بالنسبة لألمانيا • لذلك يرى أن تستعد هذه الأخيرة للوقوف في وجهها بحزم بالغ وأن تصفي حسابها معها جملة وتفصيلا مرة واحدة • ويقول شبنجلر بأن ألمانيا لن يتسنى لها ذلك ما لم يقم فيها نظام حديدي شديد ، وما لم تسلم مقاليد السلطة في هذا النظام الى زعيم هي بحاجة اليه • ولقد تقدم شبنجلر

بالتحية والاكبار لشهر تموز من عام ١٩٣٣ ، وهو الشهر الذي تولى فيه الحزب النازي السلطة في ألمانيا ، وقال ان الثورة الهتلرية كانت شيئاً عظيماً.

ثم يقول شبنجلر بأن نهضة أوربا جميعها مرتبطة ارتباطا وثيقا بنهضة ألمانيا التي ستكون تحت نظام الحكم النازي « قلعة العرق الأبيض » على نهر الفستولا ، اذ ستقوم بصد جميع الأخطار التي ستتهددها عند اتجاه روسيا نحو مصيرها الآسيوي • ثم يتوسع شبنجلر في معاداته البشرية كلها من غير البيض فيقول ان الرجل الشمالي الألماني الذي يستسهل الصعاب ويعرف كيف يتغلب على المخاطر هو الذي سيحرر أوربا ، فلا يبقى أمامه خطر العروق الملونة • فالعروق الملونة ، كما يرى شبنجلر ، تسير سيرا حثيثا نحو التكاثر في الوقت الذي يسير فيه العرق الأبيض نحو التناقص يوما بعد يوم • وانه اذا حدث أن اتحدت هذه العروق الملونة المنحطة ضد العرق الأبيض يوماً من الأيام فتلك هي الكارثة المحتمة • على أن البيض اذا تمسكوا بأمجادهم وبلغوا قمة المجد ، فان الغلبة ستكون لهم كما يرى • لذلك يدعو شبنجلر العرق الأبيض الى الدخول في الاشتراكية الوطنية الالمانية تحت الراية البروسية والا فان مصيره ـ على ما يرى ـ سيكون الخذلان والضياع.

وقبل الانتقال الى آراء روزنبرغ وهتلر أرى من الضروري الوقوف بعض الشيء عند رأي مفكر ألماني آخر كانت له يد طويلة في اقامة النظام الهتلري في ألمانيا ، وذاك هو « موللر » الذي توفي عام ١٩٢٥ •

وكان موللر يدعو االى تسليط الأقلية على الأكثرية بتسليم السلطة الى النخبة الممتازة أيضا • لذلك فانه قال ان ألمانيا ليست بحاجة الا الىاشتراكيتها الوطنية فهي لا تحتاج للمذاهب الغربية الضارة بها ، والتي من جملتها مبدأ الحرية • فالحرية ، فيما يقول موللر ، تؤدي الى تقوية الأكثرية ضد الأقلية، كما تؤدي الى اثارة النزاع بين الدول على الصعيد الخارجي •

ويرى موللر أن الديموقراطية الصحيحة هي ليست هذه التي تؤمن بالحرية ، انما تتمثل بالنظام الذي يؤدي فيه الأفراد وطبقات المجتمع واجب الطاعة الى الفئـــة المختارة والزعيـــم • ويقول موللر ان الشعب الالماني ديموقراطي بطبيعته لأنه تعود هذه الطاعة منذ القديم • ففي العصور القديمة كانت القبيلة الألمانية تخضع للدوق • أما اليوم فان الشعب يجب أن يخضع لزعيم • ويقول موللر ان هذه الديموقراطية الالمانية الصحيحة لا تشـــبه غيرها من الديموقراطيات فهي غريبة عن « العقد الاجتماعي • » • ذلك لأن هناك قواعد وأسساً قديمة لايمكن للشعب الألماني التخلي عنهـــا بحال من الأحوال ، وتلك هي القواعد الديموقراطية القديمة في الطاعة والخضوع • لذلك يرى موللر بأن الحكم الدكتاتوري عن طريق زعيم تساعده نخبـــة ممتازة من الرجال هو نظام الحكم الوحيـد الذي تحتاجه ألمانيا حيث انـه ـ كما يرى موللر ـ يمثل حكم الشعب لنفسه بنفسه ، على أساس ان هـذا الزعيم يمثل ارادة الشعب العامة •

وكان موللر موفقاً في هجماته الفلسفية التي شنها على الماركسية • لكن التوفيق لم يحالفه في هجومه عـــلى الديموقراطية والحرية بما أضفى على الديكتاتورية وسحق الحريات من صفات أراد أن يقنع الناس عبثاً بأنها هي الديموقراطية الصحيحة •

فاذا انتقلنا الى هتلر وروزنبرغ وجدناهما نغماً نشازا واحدا يصدر عن وتر واحد • وكان دستور الحزب النازي قد وضع عام **١٩٢٠** ثم عاد هتلر ونقحه عام **١٩٢٨** بحيث أصبح الاطار الفلسفي والسياسي للفكر النـــازي المستمد من الفلسفات الالمانية النـازعة نحو الديكتاتورية وسحق الحريات والتسلط على العالم •

ولقد حاربت النازية الحريات العامة وفرضت نفسها على الشعب الالماني كدين رسمي بالنسبة للدولة • لـكن النـازيين كانوا يعرفون مدى تغلغل الشعور الديني في نفوس أبناء الشعب الالماني ، لذلك فانهم حاربوا الـدين بتحفظ اذ جاء في المادة الرابعـــة من دســـتور الحزب النازي بأن حرية الديانات مصونة ضمن الحدود التي لا تعرض ســـلامة العرق الجرماني والدولة للخطر ، وان الحزب يقبل نوعاً من النصرانية الايجابية غير المرتبطة بمذهب من المذاهب المسيحية •

ويرى هتلر ان الشعور الوطني وفكرة قيام ألمانيا الكبرى ضعيفة لدى رجال الدين الكاثوليك الألمان ، وان الكنيســة لا تكترث بالشـؤون الوطنية

الالمانية لكون عاصمتها خارج ألمانيا • عليه فهو يرى أنها لن تصبح وطنية الا اذا أصبحت كاثوليكية مستوطنة • وكان هتلر يدعو الى احلال فكرة الوطن محل فكرة الكنيسة العالمية على اعتبار عدم وجود داع للأخيرة ، ومن هذه النقطة أيضا كان يدعو البروتستانت الالمان للايمان بـ «اللا سامية» بدلا عن الكنيسة •

ويقف روزنبرغ من حرية الدين موقفاً عنصرياً مشابهاً لموقف هتلر اذ يقول ان العصر الحاضر اقتضى اجراء تعديل كبير على الشعور الديني بحيث يكون الانسان في الدولة النازية جندياً في جميع الظروف والأحوال بغض النظر عن مهنته الأصلية ، كما يجب أن لا يبقى في المجتمع لا قساوسة ولا رهبان ، بل يجب أن يكون هناك عمال وفلاحون وموظفون ومفكرون يتصفون جميعاً بصفات الجندي المحارب •

ويضطهد هتلر حريات العناصر غير الألمانية ولا يعترف لها بالسيادة مطلقاً وفي ذلك يقول : « ان مهمة الرايخ الالماني كدولة لا ترمي الى الاحتفاظ بعنصرية الشعب وحسب ، بل ترمي كذلك الى توجيه هذهالعنصرية باصرار نحو مكان السيطرة العليا • » • ويرى هتلر أن فكرة العنصرية والدم انما هي هبة من هبات الطبيعة اذ ليس في استطاعة الفرد أن يعيش في هذه الحياة دون انتمائه الى عنصر خاص ، وان هذه العناصر التي تتكون منها البشرية غير متكافئة أو متساوية فيما بينها ، وان العنصر الممتاز على وجه

الأرض هو العنصر الالماني ذو الرسالة المقدسة الذي يجب أن يستولي على جميع خيرات الأرض وثرواتها • وان مما يجعل هذا العنصر قوياً متحداً هو وحدة الدم بالاضافة الى وحدة اللغة •

ويشبه روزنبرغ اكتشاف الفكرة العنصرية باكتشاف كوبرنيك ويقول ان الأفراد هم الذين يدورون حول الـــدولة وليس العكس هو الصحيح ، وان الدولة العنصرية بدورها تدور حول الفـكرة العنصرية السائدة ، وان الدم هو الميدان اللا شعوري الذي نستطيع بواسطته تحديد هوية العنصر • ويرى روزنبرغ استحالة قيام المساواة بين العناصر التي يتكون منها الجنس البشري نظرا لامتياز العنصر الالماني على غيره ، وهو مايترتب عليه ـ كما يرى ـ قيام نوع من الديكتاتورية الارستقراطية العالمية التي تكون فيها الصفوة الممتازة وعلى رأسها الفوهرر ، في قمة الهرم •

ويرى هتلر أن هنـــاك فارقاً كبـــيراً بين « الفوهرر » وبين جمهور الشعب • فهو يعتقد أنه مكلف برسالة مقدسة تعبر عن رغبة الجمهور وارادة العنصر الالماني ، لذلك فانه يرى أن يكون واجب هذا الجمهور هو الانقياد والخضوع التام • ويقول هتلر بأنه لولا عدم وجود المســاواة بين الشعب وبين قادته لما كان هناك تقدم الى الأمام • ويرى روزنبرغ أن الزعيم ليس هو بالرجل القوي وحسب ، انما هو الحاكم والمخترع والذي يدعو الناس الى ديانة جديدة أيضاً ، فهو يجب أن يكون كل شيء في الدولة •

وهكذا نرى هؤلاء المجانين يشطبون الشعب والفرد من قوائم حسابهم بمثل هذا اللغو الفلسفي الصادر عن طبيعة سادية أصيلة • ويمعن روزنبرغ في عنصريته واضطهاده الحريات العامة فيمضي مبررا الحكم الديكتاتوري ويقول ان الزعيم انما يستمد سلطته « الديموقراطية ! » من مجرى دم العرق النقي •ويمضي يتفلسف بطيش فيقول ان « الشعب هو هذا الجزء من الدولة الذي لايعرف مايريد • وان الزعيم هو الذي يوجه الشعب الى مايريد وذلك عن طريق أفكاره الصائبة وما يتصف به ـ أي الزعيم ـ من صفات العزم والحزم • فالزعيم كما يرى روزنبرغ ، هو المرآة العاكسة لشخصية الدولة والشعب ، وانه بالنسبة للشعب كالشعور بالنسبة للاشعور !•

ويمعن هتلر في سحق الحريات الفردية أيضا فيقول : اني انظر الى قيمة الفرد من ناحية انصهاره في البوتقة العرقية • وهكذا ذابت شخصية الانسان في الدولة التي يكون فيها الزعيم كل شيء • ثم يمضي هتلر قائلا ان الفرد سيبقى محتفظاً بحرياته بعد أن اندمجت ارادته في ارادة المجموع ، وان ارادة المجموع العامة هذه يجب أن لا تتجاوز في معناها حد الخضوع لارادة الزعيم التي هي نفسها الارادة العامة !

ويزيد روزنبرغ على أقوال زعيمه فيقول ان واجب المعلم الالماني هو تحرير الشبيبة الالمانية من الاخطاء الفكرية التي تجعل من « الأنا » مبدأ من مبادىء الحياة الحرة !•• وهكذا والى النهاية على هذا الخط ، كان

يفكر روزنبرغ .

وبخصوص المرأة وحرياتها فان النازية تلزمها البيت وتجعلها اداة لانتاج الأطفال الذين يربون تربية عنصرية عسكرية لأغراض الحرب والمحافظة على دوام العرق الآري . ويرى روزنبرغ أن المرأة دون الرجل بدرجات لعدم وجود القدرة الكافية لها في مجال التخيل والابداع ، اذ أن التصور كما يرى ، من صفات الرجال اللصيقة بهم دون النساء ، وان وظيفتها تنحصر في انتاج النسل والمحافظة على العرق . ويرى روزنبرغ أيضا أن كل المنجزات الضخمة العظيمة في الدنيا انما هي من انتاج الرجل وأفكاره .

وتسعى النازية الى تحقيق هدف في منهاجها السياسي ، وهو فرض سيادة الدولة العنصرية على العالم ، عن طريق « عسكرية الشعب » وذلك بأن تخلق من كل فرد من أبناء البلاد جندياً مقاتلا بالاضافة الى مهنته الاعتيادية . وفي ذلك يقول هتلر في معرض تعريفه الدولة انها جهاز يعود الى مجموعة معينة من الناس المتشابهين بدنيا ونفسيا وقد ارتبطوا بمصير واحد هو تحقيق أفضل السبل والطرق لحفظ العرق ، وان من شأن هذا الجهاز السماح لهؤلاء الناس بالوصول الى النهاية التي يخططها لها وجودها – وهتلر يعني بذلك سيطرة العنصر المتمثل بهذه المجموعة على عناصر البشرية الاخرى والأرض . ويقول هتلر ان الغرض من النظام النازي هو

أن تخلق من كل ألماني عاملا وجنديا في وقت واحد •

وفي عام ١٩٣٥ كتب روزنبرغ مقالا تحدث فيه عن فلسفته العسكرية فقال ان الدولة الوطنية الاشتراكية ستخلق من كل مواطن ألماني جنديا سياسيا • وان هذه العسكرية هي صفة الدولة التي تقودها صفوة ممتازة من الرجال على رأسهم زعيم ، وانها ـ أي الدولة ـ ستكون على ارتباط وثيق بالجمهور ، وسيكون في خدمتها بالاضافة الى الجيش ، الادارة والقانون •

ويقول هتلر ويؤكد بأن المانيا تمتاز على انكلترا وفرنسا وغيرهما من الدول بأنها مكونة بصورة مركبة محكمة عن طريق التربية العسكرية الصرفة في حين ان تلك الدول قد كونت على أساس الشعور الجماعي الطبيعي الوطني •

وكانت النازية تطالب بـ « مدى حيوي » أو مجال حيوي ، وهو ما كانت تطلقه على المستعمرات • فالنازية حركة استعمارية • ويرى هتلر أن يدرس التاريخ للناشئة الالمان على اساس افهامهم دور العنصرية في التوسع الجرماني بواسطة الاستعمار ، وايضاح العلاقة المتينة لهم بين الشعب والمدى الحيوي الضروري له • وكان الغرور قد دفع بهتلر الى الاعتقاد بأنه وريث أمجاد روما واثينا من وجهة نظره في أن كل شيء عظيم انما هو من نتاج الآرية التي تتزعم رسالتها المانيا النازية ، وكان يؤكد على وجوب افهام الناشئة الالمان هذه الحقيقة • اما روزنبرغ فانه كان يرى بأن التاريخ العام

ماهو الا صراع مستمر أبدي بين مختلف العروق التي يتكون منها الجنس البشري ، وان حضارة العرق الأبيض هي التي انتجت للعالم المحاربين الأبطال الذين غزوا العالم وأذابوا في حضارتهم الحضارات السامية القديمة على الصعيد الألماني .

ويقول هتلر ، وكأبشع ما قاله مستعمر لا أنساني ، ان من الضروري والواجب احترام الشعوب غير الالمانية والعروق السوداء والصفراء . وان هذا الاحترام يجب أن يكون عن طريق استعمارها والقضاء عليها . ويقول روزنبرغ ان على أوروبا أن تلتف حول راية ألمانيا في كفاحها من أجل سحق العروق الاجنبية ، وان التعاون بين شعوب القارة يجب أن يكون على ضوء الفكرة الجرمانية . واخيراً فان هتلر يقول ان هناك عروقا تبتدع الحضارات وانه ليس من الممكن ابتداع الحضارة الحقيقية الاصيلة الا عن طريق الحرب .

وبخصوص الصحافة والفكر ، فانه لايوجد في الدولة النازية غير الصحف النازية والمطبوعات النازية ، ولا رأي أو فكر فيها غير رأي الزعيم وافكار النخبة المختارة التي تنفذ آراءه ؛ والنقد شيء محرم على أبناءالشعب لأن رأي حكومة الزعيم هو رأي الشعب ذاته في رأي روزنبرغ وهتلر ، عليه فانهما يريان بأن النقد الموجه للحكومة انما هو خيانة وطنية .

وبعد أن سحق هؤلاء المجانين حريات الافراد والعروق والشعوب

والدنيا كلها ، لايسع المرء الا الاستغراق في الضحـــك عندما يقرأ كتـاب « كفاحي » لهتلر ليسمعه يقول في اولى صحائفه انه كان « يحب الحرية حباً جمـاً ! » .

وفي الحرب العالمية الثانية اشتبكت الفاشية الألمانية في حرب مخيفة مع الديموقراطيات الغربية من جهة ومع الماركسية الشرقية من جهة أخرى . وكانت النتيجة هي زوال الفاشية عن ألمانيا كنظام ، وبقاء الشيوعية مع الحرية وجهاً لوجه في الميدان . ولقد لمس العالم مدى الخطر الذي تمثله الشيوعية على الحريات في ذات الوقت الذي لمس فيه خطـــر الليبرالية الرأسماليـة عليهـا .

وفي الخمس عشرة سنة الأخيرة شهد العـــالم ازدهار الديموقراطيـة الاشتراكية وتناميها وامتدادها الى كثير من بلدان العالم . وتشاء الظـروف أن تكون أقـــوى الدول بين كتلة عدم الانحيـــاز هي ممن تلتـزم الخط الديموقراطي الاشتراكي كالجمهورية العربية المتحدة والهند بالاضافـة الى بعض دول عدم الانحياز الاخرى . ونحن نعلم بأن حركة عدم الانحيـــاز التي تتبناها الديموقراطية الاشتراكية في تنام وتوسع في نفس الوقت الذي راحت فيه شعوب العالم الغربي تطالب بالحاح بالقضاء على آخر صور تسلط الرأسمالية على الحـــريات . تـرى هل ستجتـــذب أنوار الديموقراطيـة الاشتراكية العدد الكافي من دول العالم اليها لتنضم الى كتلة عدم الانحيـاز

النازعة ضد السيطرة الاجنبية والاستعمار فتكون هذه الديموقراطية الحصن الأكبر للحرية ويعم السلام الارض ؟ ان ذلك يتوقف على نجاح الأحزاب الديمقراطية الاشتراكية في العالم الغربي ووقوفها ضد النزعات الاستعمارية، وعلى التجاوب السلمي لروسيا السوفييتية مع الغرب عن طريق تمسكها بسياسة التعايش السلمي وتخليها عن الأهداف الشيوعية في التدخل بشؤون الدول الاخرى والسيطرة على العالم • ولقد سمعنا مؤخراً المستر نيكيتا خروشوف يقول وهو يرد على اتهامات الصين الشيوعية انه لايريد التدخل في الشؤون الداخلية للدول الاخرى ، وانه يرحب بـ « البورجوازية الصغيرة » اذا كانت تعني المزيد من الحياة المرفهة للشعب الروسي ، فما معنى هذا ؟•• هل يعني أن الماركسية قد أصبحت من الاشياء التي ينبغى ادخالها متحف الآثار القديمة ، وان الحريات التي تتبناها الديموقراطيات الاشتراكية ، وتشجبها الشيوعية الماركسية ، هي في طريقها الآن الى مصيرها المؤكد في سيادة حياة الانسان كمبدأ ، على ظهر هذا الكوكب ؟ •

انتهى

من مراجع البحث

١ ـ بلوتارك : عظماء اليونان والرومان
٢ ـ بيوري : الحرية
٣ ـ بولدوين : الديموقراطية
٤ ـ توماس بين : حقوق الانسان
٥ ـ توماس بين : عصر العقل
٦ ـ توماس بين : الفهم
٧ ـ جان جاك روسو : العقد الاجتماعي ـ ترجمة المؤلف
٨ ـ جان جاك روسو : أميل
٩ ـ موسوليني : الفاشية
١٠ ـ فرمي : الثورة الالمانية
١١ ـ مكولي : ملتن
١٢ ـ هتلر : كفاحي
١٣ ـ هايكل : خلق الانسان
١٤ ـ ول ديورانت : قصة الفلسفة
١٥ ـ البير باييه : تاريخ اعلان حقوق الانسان ـ ترجمة الدكتور محمد مندور
١٦ ـ فولتير : مقبرة التعصب
١٧ ـ رامسي مكدونالد : الحركة الاشتراكية
١٨ ـ مونتسكيو : الرسائل الفارسية
١٩ ـ مونتسكيو : روح القوانين
٢٠ ـ جون لوك : رسالة في الحكومة المدنية
٢١ ـ ديدرو : اعترافات راهبة ـ ترجمة المؤلف
٢٢ ـ ماك آيفر : الأسوار التي نحميها
٢٣ ـ غابرييل : نهج الفكر الديموقراطي الأمريكي
٢٤ ـ جستر باولز : الآفاق الجديدة للسياسة العالمية ـ ترجمة المؤلف
٢٥ ـ ملتن : دفاع عن الشعب
٢٦ ـ توماس هوبز : العملاق

٢٩ ـ مورلي : ديدرو والانسكلوبيديين
٢٧ ـ هارولد لاسكي : قواعد السياسة
٢٨ ـ جون برجس : مدارس العلوم السياسية
٣٠ ـ مورلي : جان جاك روسو
٣١ ـ كانت : نقد العقل المجرد
٣٢ ـ هيوم : محاورات في الدين الطبيعي
٣٣ ـ طه حسين : قادة الفكر
٣٤ ـ محمد عبد الله العربي : نظرات بين الشيوعية والاسلام
٣٥ ـ عطا بكري : الديموقراطية في التكوين
٣٦ ـ عطا بكري : الدستور وحقوق الانسان
٣٧ ـ محمد حسين الصغير : الشيوعية مبدأ هدام
٣٨ ـ انسكلوبيديا العلوم الاجتماعية
٣٩ ـ هكذا تكلمت المانيا
٤٠ ـ هيجل : فلسفة التاريخ
٤١ ـ هيجل : الاخلاق
٤٢ ـ هارولد لاسكي : الديموقراطية الاميركية
٤٣ ـ نيتشه : ارادة القوة
٤٤ ـ جون هامرتون : كفاح اوربا في سبيل الحرية
٤٥ ـ كول
٤٦ ـ پورتر
} : هكذا تكلمت المانيا

COLUMBIA UNIVERSITY
0026812487

956
Ir27
4

956-I-27
4